المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

كارمن بويوسا

النائمة

ترجمة وتقديم: نادية جمال الدين محمد

مراجعة: محمد أبو العطا

1814

سلسلة الإبداع القصصي

النائمة

رواية

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1814
- النائمة
- كارمن بويوسا
- نادية جمال الدين محمد
- محمد أبو العطا
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة رواية:
DUERME
By: Carmen Boullosa

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤- ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

النــائمة

رواية

تــأليف: كــارمن بويوســا

ترجمة وتقديم: نادية جمال الدين محمد

مــراجعة: محمد أبو العطا



2011

النائمة: رواية/ كارمن بويوسا؛ ترجمة وتقديم: نادية جمال الدين محمد؛ مراجعة: محمد أبو العطا . ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١ .

١٧٢ ص؛ ٢٠ سم. ـ (المشروع القومى للترجمة)

تدمك ٠ ٩٣٠ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الأمريكية.

أ ـ محمد، نادية جمال الدين. (مترجم)

ب ـ أبو العطا، محمد. (مراجع)

ج ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٩١٩/ ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -930 - 0

ديوى ٨٢٣

المحتويات

تقديم المترجمة

يعتمد الأدب بشكل عام، والروائى بشكل خاص، على أن يستمد مادته إما من الواقع القريب أو البعيد، متمثلاً فى التاريخ أو استشفاف المستقبل وإعمال التوقعات والخيال فى كلتا الحالتين. كما أن كتب التاريخ كانت خير عون لكتَّاب الرواية بما يسكنها من شخصيات تلبى حاجتهم الإبداعية.

وفى حالة الكاتبة المكسيكية كارمن بويّوسا (الشاعرة والروائية والمؤلفة المسرحية المولودة فى ٤ سبتمبر ١٩٥٤ بمدينة مكسيكو)، فإنها تميل نحو تاريخ بلادها فى محاولة منها لاستنطاق حقبة ما قبل الاكتشاف والغزو الإسبانى ثم فترة الاستعمار. وهى فى تناولها تمثل تيار ما بعد الحداثة حيث تميل إلى الميتاقص التاريخى الذى يرفض إسناد السرد إلى تجارب تاريخية مهيمنة تعتمد فى توثيقها على عوامل يصعب معرفة إمكانيتها فى تحديد وقائع تاريخية بدقة؛ لاعتماد كتابة التاريخ على الخطاب الخاضع للتعددية التأويلية التى لا تعكس الواقع وإنما تقوم بتأويله طبقًا لإطار

اجتماعى وثقافى معاصر، إنه حوار مع الماضى بلغة الحاضر ومحاولة لسد الفجوات التى تمتلئ بها الكتب التاريخية. وعليه فإن جانبًا كبيرًا من أعمال كارمن بويّوسا يمكن أن يخضع للتفكيكية بحيث يقبل أكثر من قراءة.

وهى بعد بدايتها التى خصصتها للطفل عبر روايتى: "الاختفاء أفضل" (١٩٨٧) و "من قبل" (١٩٨٩)، تخطط لمشروعها التاريخى الأدبى فتعيد كارمن بويّوسا أحداث التاريخ، ولكن بفكر الحاضر ولغته، من خلال ثلاث روايات هى: "هم بقر ونحن خنازير، قراصنة فى بحر الكاريبى" (١٩٩١) و "نحيب. روايات مستحيلة" (١٩٩٢) ثم "سماوات الأرض" (١٩٩٧). وتستمر بويّوسا فى مساءلتها للتاريخ حتى تصل إلى "النائمة" (١٩٩٤) التى تخترق بها زمن نواب الملك فى العالم الجديد من خلال ثلاث محطات زمنية هى ١٥٧١ العام الذى أُسست فيه محاكم التفتيش فى المكسيك ومجتمع إسبانيا الجديدة خلال ١٥٧٢ و ١٥٩٧.

فى الرواية الأولى "نحيب" تتناول بويّوسا المغلوبين الذين يترجمون شعورهم بالهزيمة عبر النحيب. ثم فى الثانية "روايات مستحيلة" تتناول، بشكل خارج عن الإطار التاريخى الفعلى، الغزو الإسبانى وشخصية القائد والبطل الشعبى المكسيكى موكتيثوما الذى اختلفت كتب التاريخ حول مقتله: هل قتله الإسبان الغازون أم عشيرته؟ فتعيد الحياة إليه فى محاولة منها لإنصافه أمام شعبه بعد أن ظلمه التاريخ باتهامه بالخيانة، بحيث بعثت شخصيته ولكن

بلباس ما بعد الحداثة فى أواخر القرن العشرين بحيث تعايشت معه فى المكسيك اللحظات الحاسمة للغزو الإسبانى، مؤكدة استحالة تناول حياة موكتيثوما تاريخيا؛ لعدم توافر الوثائق الكافية لذلك والقضاء على الذاكرة الجمعية للسكان الأصليين فى المكسيك والصراع بين اللغة المكتوبة والشفاهية وإشكالية الترجمة (على المستوى اللغوى والثقافى).

تقوم بويّوسا فى هذه الرواية "نحيب" بإعادة نسج الحدث التاريخى لتنزع منه أحداثًا لم تروها المصادر التاريخية بحيث تُظهر إشكالية عجز التاريخ والخيال عن توثيق الحقائق، ثم تقوم بمحاولة تعويض هذا العجز عبر الميتاقص الذى تحلل من خلاله بشكل ما عملية السرد وإبداعه وصعوبة تحديد أولوية ما يُحفظ فى الذاكرة وما يُستبعد منها وكيفية بناء الأحداث التاريخية. وفى النهاية تخلص إلى عدم وجود فروق جوهرية بين الرواية التاريخية الجديدة وكتابة التاريخ سوى أن الأولى هى إعادة قراءة للثانية بهدف استنطاق المسكوت عنه فيها (خضوعًا لأهواء شخصية أو سلطة ما تكتب التاريخ حسب رؤيتها أو توجهاتها). ولهذا تخلص إلى أنها "روايات مستحيلة".

أما الثالثة "سماوات الأرض"، فهى تُحدث تداخلاً بين تاريخ المستعِمر الإسبانى، وخاصة عهد جماعة سانتا كروث دى تلاتيلولكو، وعهد معاصر فى مدينة المكسيك ومستقبل يوطوبى فى إقليم أطلقت عليه اسم "الأتلونطيد" نسبة إلى القارة القديمة التى

ابتلعها البحر منذ دهور وذكرها أفلاطون كقارة حقيقية وليس كأسطورة، وهى تمثل للمؤلفة تحديًا للحاضر بالهروب منه إلى ماضٍ تتماهى حضارته مع حضارة بلادها التى قضى عليها الغازى الإسبانى.

تدور أحداث رواية "النائمة" خلال فترة الحكم الإسبانى أو حكم نواب الملك فى إسبانيا الجديدة. وهى تعتبر امتدادًا لرواية "طبيب القراصنة" حيث تستدعى قصة القراصنة الذين هاجموا الكاريبى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر والمتجسدة فى بطلتها "كلير". وفى هذه القصة نجد "كلير"، التى تَتَخفّى فى شخصية رجل وقرصان، تقرر السفر إلى جزيرة "تورتوجا" فى فنلاند من أجل تغيير قدرها الذى دُفعت إليه كعاهرة، فتتقمص شخصية الرجل فى السلوك وفى المظهر. وهى تؤكد فى أجزاء من الرواية أنها تفضل أن تُصبح رجلاً بدلاً من استمرارها كعاهرة، على الرغم من احتقارها للرجال. وهكذا تبحر من "هونفلور" باتجاه الكاريبى وهى متخفية فى شخصية رجل ولكنها لا تستطيع أن تمحو من ذاكرتها مهنتها كعاهرة فتتذكر، وهى على حبل المشنقة، كيف أنها كانت مع آخر زبون لها وكيف أسكرته وسرقت ملابسه وصعدت فى اللحظة الأخيرة المركب الذى حملها كرجل إلى الكاريبى حيث التجارة فى كل ما هو محرّم.

تصف لنا الكاتبة فى روايتها مجتمع إسبانيا الجديدة فى النصف الثانى من القرن السادس عشر، والتعدد الجنسى والعرقى

والاجتماعى خلال فترة الاستعمار الإسبانى المتجسدة فى "كلير" التى تحطّم جسدها من أجل أن تصبح جسدًا آخر، وهى بذلك ترمز إلى المكسيك المستعمَرة التى تحولت، مع امتزاج واختلاط الأعراق فيها، إلى مكسيك "مولّدة" ولكن ليس بالمعنى المتعارف عليه، من حيث فقدان الهوية الأصلية بتمزقها بين الأعراق مما يجعل من الصعب تحديد هوية أبنائها، وإنما بمنحها علامات هوية خاصة تميزها.

هناك إسقاطات وتناصات تحاول عبرها المؤلفة التعبير عن المآسى التى عانى منها السكان الأصليون من المستعمر الإسبانى، ليس فقط على المستوى المادى، من استغلال ثروات البلاد بكل أشكالها وأنواعها، وإنما أيضا على المستويين الإنسانى والنفسى بتجريدهم من أقل الحقوق الإنسانية (التمتع باسم) وأهمها (الهوية) ("أنت لست رجلاً ولا امرأة، لست ناهوالت ولا إسبانيًا ولا مولّدًا ولا كونتًا ولا وصيًا، أنت لا تستحق الموت"). إنها تدافع عن الجذور والأرض التى ينتمى إليها كل إنسان لتأكيد هويته. وهو ما تعبر عنه بالحياة داخل بلادها وأرضها (المكسيك) والدخول فى سبات عميق إذا ما ابتعدت عنهما.

تمثل "النائمة" صيحة تضاف إلى صيحات أطلقت، وما زالت، دفاعًا عن ثقافة المغلوب وتجريده من إنسانيته، مثل قيام الكونت الإسبانى (الغالب) أوركيثا بإطلاق اسم موحد هو "كوسمى" على كل خدمه الهنود (المغلوب) إيثارًا لراحته وحتى يكون الجميع تحت

قدميه حين يستدعيهم ("نحن الهنود فى هذا المنزل نُدعى "كوسمى بلا استثناء لعدم إرباك دون "أنريكيه")؛ وأيضا ختم كل عبد من السكان الأصليين مثلما تختم الحيوانات ("تمر عربة تجرها ستة بغال وتحمل بعض الخاصة. ولكى ينبهوا الهنود إلى أن يفسحوا الطريق يضربونهم بالسوط من جانب لآخر دون أن يبالوا بأنهم يضربوننا وكأننا رؤوس أغنام. إنهم لا يضربون هكذا حتى أحصنتهم. استطعت تفادى ضربة سوط فتعثرت عند ذلك بهندية أخرى، امرأة عجوز تسير بصعوبة، التى أسندها حتى لا تقع بسبب ثقلى. يقع دثار كتفيها فأرى اسمًا مختومًا بالحديد المكوى مثل رؤوس الأغنام"، "هذا مع وجود قلة من البغال فالحمّالون الهنود يحملون على ظهورهم كل الأثقال")؛ والفصل العنصرى بين الغالب والمغلوب ("إن المدينة ذاتها التى أتوقف فيها مقسمة إلى قسمين: قصور الإسبان الشاهقة والمنظمة والمصطفة على جانبى الطرق المرصوفة الواسعة، ومنازل الهنود الصغيرة والحقيرة غير المنظمة المختبئة خلف الأولى. هناك بعض البيض الأغبياء الذين يؤيدون وجود فصل دائم وأن هذه عاداتنا. وهم لا يمزحون، إنه غباء محض. قبل أن يأتوا لنا بالخراب، كانت شوارعنا مخططة بنظام كامل")، ثم تجمل رؤيتها للمستعمر الإسبانى فتصوره وحشًا مرعبًا ("لا يوجد وحوش، ولكن إذا كان هناك منهم، فهم الإسبان الذين يستغلون أرض الهنود") ولكنها لا تتخلى أبدا عن حلمها بعودة المكسيك إلى سكانها الأصليين والاستيقاظ بعد سُبات مهما طال ("بالطبع سوف ينتصر على الإسبان، سيكون جيشه أفضل من

جيشهم، ليس لدى أدنى شك") ولكن ليس قبل أن تطرح تساؤلا صعبا بعد أكثر من خمسمائة عام من الاكتشاف (الاستغلال) وهيمنة ديانة المستعمر ولغته وثقافته، تطلقه فى نهاية الرواية: (ولكن، هل تصبح المكسيكية لغة هذه الأمة؟).

تنتهى المؤلفة إلى أن العالم، حسب رؤية البطلة، مزدوج ومنقسم (مثل شخصيتها: امرأة ـ رجل؛ هندية ـ فرنسية، إلخ.) إلى القديم والجديد، والضوء والظلام، والصمت والصوت، والأبيض والأسود، والماء والأرض، والخير والشر، والرجل والمرأة، والأوروبيين وبقية الأعراق، إلخ.

وهكذا نكتشف أن رواية "النائمة" تعطى المساحة لأكثر من تفسير ورؤية عبر عدة منظورات. فهى مزيج من الهويات والمستويات الاجتماعية التى تمخض عنها اكتشاف العالم الجديد فى القرن السادس عشر وفوضى عدم الاستقرار الاجتماعى بين غالب، يريد فرض لغته وثقافته بل ديانته أيضًا، ومغلوب ممزق بين هويته الأصلية (الهندية) وهوية الغالب التى يلفظها ويعيش فى عدم استقرار يترجم عبر الهويات الثلاث التى تتبادلها البطلة فترمز بذلك إلى المكسيك المستعمرة. إن كل ما يرمز لها فى الرواية مجهول الهوية حتى اسم الهندية التى ترعاها ("ذات اليدين الدافئتين").

تستطيع "كلير" بتبادل "الأقنعة" أن تتعامل مع المستويات الاجتماعية المختلفة فى المكسيك: فهى هندية بعد أن تشبعت

عروقها بماء الحياة الأصلية التى منحتها (للمكسيك) الخلود؛ وكونت إسبانى، وهى مقيمة فى القصر؛ وهى فرنسية، رمز الثقافة والأفكار التحررية التى غزت المكسيك وساعدت على تحريرها؛ وتحب رجلاً إسبانيًا. ولكن هذا الانصهار بين الهويات يتحول من عامل سلبى إلى دعوة من الكاتبة لتبادل التفاهم مع الآخر سعيا للتكامل وخلق حوار إيجابى يسعى إلى الالتقاء فى منتصف الطريق بعد نبذ التعالى ومعانقة التسامح.

ينعكس شعور المؤلفة بشبه فقدان لهويتها الثقافية (الهندية)، ومحاولتها بالتالى التشبث بتلابيب هذه الهوية، فى استخدامها لأسلوب "الكولاج" أو "التجذير" حيث نجدها تطعّم روايتها بخيوط أصيلة من ثقافة بلادها مثل استخدامها لكلمات هندية أصيلة بالتوازى مع الإسبانية وذكر الطقوس الهندية الخاصة بالموتى ومفهوم السكان الأصليين للقارة الأمريكية للموت. وأيضا ببعض عناصر الواقع السحرى، فهى تستخدم كلمات محددة ومعبرة عند تناولها لتاريخ بلادها ثم كلمات وتعبيرات شبه خيالية أو سحرية عند وصفها للشخصيات وأفعالها ("يقوم عربى جميل الطلعة، وهو جالس فوق وسادة من القطيفة، بغزل حرير بانهماك يجعله لا يلتفت إلينا"). بل والمزج بين فضاءات أسطورية وتاريخية ومعاصرة فى نفس الوقت.

لقد استعارت "بويّوسا" روايتها من صفحات التاريخ ونسجت عناصرها من مزيج من التأثيرات أو التناصات، منها الفكرة

الأساسية لشخصية النائمة (جارثيا ماركيث وقصتا "طائرة الجميلة النائمة" و "أجمل امرأة فى العالم") عن اليابانى ياسونارى كواباتا وقصة " الجميلات النائمات"؛ والتنكر فى شخصية رجل (لوبى دى بيغا)؛ والأقنعة(*) (أوكتابيو باث)، إلخ.

إن كارمن بويّوسا برواية "النائمة" تمتع القارئ بفضاء خيالى اكتسب عناصره من حدث تاريخى حاضر فى ذاكرة المكسيكيين ووعيهم، أعادت عرض سلبياته ولكن ليس بدون اقتراح حلول إيجابية وإن كانت يوطوبية، سعيًا وراء السلام الإنسانى.

ترجمت هذه الرواية إلى عدة لغات منها الإنجليزية والفرنسية والألمانية . وأهم دور نشرها هى:

Alfaguara، الطبعة الأولى مدريد، سبتمبر من عام ١٩٩٤.

الطبعة الثانية، مارس ١٩٩٥ (النسخة التى ترجمت عنها).

Vintage، نيويورك (بالإسبانية) عام ١٩٩٤.

Suhrkamp، فرانكفورت ١٩٩٤.

Arena، أمستردام ١٩٩٥.

L'Atalante، نانت ١٩٩٧.

Serpent a Plumes، باريس ١٩٩٩.

Le Lettere، فيرونز ٢٠٠٠.

نادية جمال الدين محمد

(*) انظر مجموعة المقالات النقدية التى قمت بترجمتها لأديب نوبل المكسيكى أوكتابيو باث التى يضمها كتاب "متاهة الوحدة"، دار سعاد الصباح للنشر، القاهرة ١٩٩٢.

النائمة

كارمن بويّوسا

ظننت أننى أهرب من ذاتى،

لكن يا لتعاستى! أتيت بذاتى معى،

أتيت بأكبر أعدائى.

الراهبة "خوانا إينيس دى لا كروث"

إذا كان خير ماء، عند ابن سينا وأبقراط

هو الشبيه بالريح؛ يسخن سريعًا ويتبرد سريعًا؛

والذى لا يترك أثرا عند طبخه؛

ويسوى الخضراوات فى أقل وقت ممكن،

وأخيرًا، الأخف وزنًا، فلا ماء أفضل من مائنا.

ثربانتيس دى سالاثار

إهداء

إلى بيدرو وإليانا بيّوسا.

إلى مارجو جلآتس وداميلا التيت.

الثوب

أسمع من يقول: "من هنا"، "من هنا". "تلاما ياوهكا"، "نيتى، أويكا". "إنه هنا". ما زال الظلام الدامس حولنا. أجدنى فجأة أصيح. كلماتى (خرساء، لا أستطيع فتح فمى) طوفان يصيح "أطلقونى"، "دعونى أذهب، دعونى". إنها تصيح يائسة وبلا جدوى لأنها غير مسموعة. وبالرغم من رجع صداها، أستطيع أن أسمع من خلالها "نيتى، أويكا". أسمعها بالفعل ولكننى لا أستطيع حراكًا، ولا أستطيع حتى فتح جفنىّ. أشعر بالتجمد. ليتهم يغطوننى. كيف يحملوننى على أكتافهم كجوال منتصب. أشعر بدفء الرجل الذى يحملنى عبر صدرى وبطنى وجانب من وجهى ولكن الجانب الآخر من جسدى بارد كالموت تقريبًا.

فجأة، يخرس صراخى الباطنى لتبدأ فى داخلى رغبة غير مرئية فى الضحك ولكن أعضائى لا تستجيب. فأنا جسد متيبس. لكن إدراكى لهذا لا يمنعنى من الضحك. أضحك ومع الضحك أزيل قليلاً من العَته الذى اقتحم عقلى. إلى أين نحن ذاهبون؟ لقد

شربت كأسًا حملها إلى حجرتى برفق خادم فسقطت فى اللاوعى، والآن، أسير هنا أتخب على كتفى رجل. إلى أين يحملوننى؟ بعد عناء شديد، أتمكن من فتح عينى قليلاً. فى البداية، لا أرى شيئًا. نقترب بعد ذلك من ضوء، لا بد أنه لمن يحمل الشعلة. يقول لنا "أكوبكا". ثم نبدأ فى صعود درج. ظلت الشعلة خلف مطيتى تضىء نفقًا. لقد هبطنا تحت الأرض. أرقدونى فى الأعلى فوق البلاط. أرى السماء فى الليل مخثرة بالنجوم. كما أرى القمر متبسمًا. تعاودنى الرغبة فى الضحك تذعن عضلاتى النملة قليلاً للباعث. تتشجع الضحكة وتنشق إلى قهقهات مرتعشة لا تنفجر، إن عضلاتى متصلبة مثل كتل من الخشب. لا أعير أى اهتمام لمن يحملنى.

بعد أن انتهت قهقهاتى، أشعر بأنهم قد وضعونى فى سرير. تكتسب أحاسيسى سمة أخرى: النشوة، يدان دافئتان تلمسان وجهى.

- إنه متجمّد، ثيكميكيليستلى...

أصوات نسوية. يغطوننى بدثار وألحفة. يتراقص لهيب الشموع، يتحرك الكل ما عداى، أشعر بالدنيا تدور من حولى. تداعب اليدان الدافئتان وجهى. يتكلم آخر أمامى. تحوُل ذراعا اليدين الدافئتين دون أن أراه.

- لقد وصل مؤخرًا. منذ يومين. جاء مع رجال الكابتن، علمت أنه اتفق من الداخل على عملية التهريب. لن يستطيع البقاء هنا طويلاً،

فهو فرنسى ويقال إنه تعامل مع قراصنة، وإذا كان هذا ما أعرفه، فيمكن لأى منكم التحقق منه، لا بد أن الذين أحضروه في عجلة لإخراجه. إن وجوده هنا يمثل خطرًا كبيرًا. فهو لوترى وفرنسى وقرصان ومهرِّب، وهى أسباب كفيلة بأن تصل به إلى حبل المشنقة هو ومن حوله. والآن ونائب الملك يبحث...

صوت آخر يقاطعه:

ـ من يدرى، ربما يكون يهوديًا. من السهل معرفة ذلك عند تغيير ملابسه.

كانت نشوتى بالراحة على السرير تسمح لى بمعاودة الضحك ـ أتمكن الآن من تحريك وجهى وصدرى ـ إضافة إلى بداية الشعور بشهية شرهة. ولأن عقلى لا يفارقنى، أرى غباء ردود أفعالى وأحاول هباء السيطرة عليها. إضافة إلى أن خطورة موقفى لم تكن تفضى إلا إلى اليأس.

ـ وإذا سمعوا غدا فرنسيته؟

ـ سيعتقدون أن سعادته يغير نغمة صوته إنقاذًا لنفسه، وماذا غير ذلك؟

ـ لست مقتنعًا بأنه فرنسى...

ـ من الأسوأ أن يكون إسبانيًا. لا داعى لكثرة الكلام. وقتنا ضيق. وإذا اكتشفوا أنه ليس الكونت، وقتها، لن يكون الكونت هنا...

ـ لقد سمعته يتحدث ـ إنه صوت ذات اليدين الدافئتين، الصوت النسائى الوحيد الذى سمعته هنا ـ إسبانيته جيدة، بدون نبرة أجنبية. فأنا هندية، نعم، ولكننى أستطيع أن أميز الإسبانى الذى يتحدث بلهجة غريبة. سأخلع له ملابسه، فلم يعد باردًا. لا بد أنهم قد غطوه وهم يمرون به فى النفق، فقد كانوا يحملون عباءته...

سأخلع له ملابسه؟ أشعر بقلبى يقفز. أو كاد يفعل لو لم يقوموا بشل جسمى بالكامل.

من كانوا؟ هنودًا منقلبين على إسبان، ليكن، فهم يمثلون انحرافًا. لماذا يخلعون ملابسى؟

ـ هل ستناسبنى ملابسه؟

أجابته ذات اليدين الدافئتين: نعم، فأنت قليل الحجم. وسوف تناسبه ملابسك أيضًا.

بدأتْ تنزع عنى ملابسى دون التوقف عن الكلام بينما لا أستطيع الدفاع عن نفسى ودون القدرة حتى على الكلام، لو كان باستطاعتى لقلت لها: "اخلعيها، فليست ثمة مشكلة. أديرى وجهك للجهة الأخرى وأنا أقوم بذلك فى ثانية"، المهم أن الملابس بقيت فوق جسدى قليلاً، لكننى لم أستطع التعبير بأية كلمة. أحاول ترتيب أفكارى. سيبدلون ملابسى بملابس إسبانية وأنا لا أستطيع الدفاع عن نفسى. اللعنة! إنها الضحكة اللعينة!

قامت ذات اليدين الدافئتين بخلع ملابسى قطعة بعد قطعة ثم غطتنى بدثار ولكن ليس قبل أن تسلمها لحملها إلى الإسبانى واحدة تلو الأخرى، ونظرًا لقيامها بإرسال شخص ثم آخر لحمل قطع الملابس التى تنزعها عنى واحدة بواحدة، تظل وحدها وتقوم بلمس أجزاء من جسدى بتأنٍّ شديد. عند انتهائها، قامت بتغطيتى حتى العنق بغطاء سميك. والمفاجأة كانت فى ملازمتها الصمت، لم تلعن ولم تتعجب، ولا صاحت لتخبرهم باكتشافها. ظلت بجوارى ويداها فوق وجهى فى صمت تام. عاد الآخرون من الغرفة المجاورة:

سأل الإسبانى الذى يضع ملابسى: أهو يهودى؟ لا أستطع تبين وجهه لأن الهندية تحجبه ولا أستطيع التحرك لأرى وجه من حل مكانى.

ـ لا ... إنه ـ شعرت بترددها ـ ليس يهوديًا.

ـ مسكين!

ـ سنحاول تحريره.

ـ سيكون ضميرى أكثر ارتياحًا لو قمتم بذلك. لو استطعتم تحريره فعاملوه كسيد، فحتى لو كان لوتريًا فهو برىء وأدين له بحياتى...

يلقى أحدهم بملابس الإسبانى فوق صدرى. أرى طرف عباءتى يطير فى طريقه إلى جسد من سينتحل شخصيتى.

قالت الهندية: انتبه لنفسك(*) ـ نيتى ناواتيا...

يخرج الجميع مع الإسبانى. إنهم ذاهبون بالتأكيد إلى حجرتى. سيتحول إلى السيد "فلوريس" عندما يغادر فى الفجر هذه المدينة التى ما كان لى أن آتى إليها أبدًا. لو استطاع المغادرة عند الفجر، فأظن أنهم لن يدعوه يخرج خلال يومين قبل أن يتوصلوا إلى الإتفاق الذى ينتظرونه وهو أنى...

تقوم الهندية ذات اليدين الدافئتين بتقريب الشموع. تحمل إحداها بين يديها. تكشف الغطاء عنى وتفحصنى دون أن تلمسنى هذه المرة. إذا كنتِ قد عبثت بيديك فى كل أركانى، فلم هذه الدهشة على وجهك؟ نعم، إننى امرأة، لقد رأيت ذلك. أشعر بالامتهان بهذا الوضع. اعتقدت أننى قد انتصرت على هذا الوضع وأنه لن يكون بلواى مرة أخرى، جسد مكشوف ومعروض (كما لو كان هو شخصى) على الملأ. أرغب فى أن أصيح فيها: "لست ما ترين!". لكننى لا أستطيع، ولن يفيدنى فى شىء. فهى ترى ما لا أريد أن أكون. وأن هذا، فى النهاية، ما ورثته عن أمى. ومهما حاولت الفرار منه فإنه سيكون، على الدوام، قدرى.

أرغب فى البكاء، وعلى الرغم من هذا لا أستطيع كبت الضحك. أريد البكاء. مات الابن الوحيد الذى رغبته، قتلوه داخل جسدى، نومونى حتى لا أستطيع الدفاع عن جنينى: نعم، إنه أنا، أنا ابنى ذاته، "كلير" المحولة إلى ذكر.

(*) الحديث للمخاطب بصيغة الجمع للاحترام، وللتخفيف فى الترجمة أضعه بصيغة المخاطب المفرد (المترجمة).

وضعت الهندية الشمعة جانبًا فأستطيع رؤيتها. تغطينى من جديد دون أن ترتب شيئًا من قطع الملابس القليلة وغير المهندمة فى أغلبها. أشعر بخشونة البطانية على نهدىّ النازيين. أفكر قليلاً فيما يحدث لى لأن الجوع والرغبة فى الضحك لا يدعانى فى سلام. لو باستطاعتى النهوض لانطلقت جريًا ولالتهمت حيًا أحد الكلاب الكثيرة التى تهيمن على شوارع هذه المدينة ليلاً.

عادت الهندية للجلوس بجوارى من جديد. كانت تحمل فى إحدى يديها حجرًا حاد الحواف وفى الأخرى إبريقًا من فخار. تقوم أمام عينى بطرق أحدهما بالآخر لكى تتأكد من رؤيتى لهما. تكشف عنى الغطاء، تقيمتى ورأسى مرفوعًا ثم، وهى تنظر إلى جسدى، تقوم بكل قوتها بغرز الحجر فى ثديى الأيسر العارى. إن هذه الهندية تريد سلخى، أن تشقنى كما يفعل مواطنوها. لا أستطيع التحرك ولا أشعر بالشق تقريبًا.

تقول لنفسها ـ التيانيتى ـ ولى: لن أؤذيك. ها قد زال الألم.

تسكب ماء من الإبريق فى الجرح المفتوح. عندما شقتنى بالحجر انساب دمى الأحمر غزيرًا على جلدى بلا اندفاع، متهاديًا. تقوم بفتح الجرح بيديها وهى تفصل حافتيه فى الاتجاهين المتقابلين، تصب فيه ماء، وعلى الرغم من أن حافتى الجرح العميق جدًا مفتوحتان مما كان سيؤدى به إلى النزف بغزارة، فإن الدم توقف عن الاندفاع. وبمرور الماء أصبح الجرح نظيفًا كما لو لم يكن لحمًا مفتوحًا. ظل الماء يسقط من الإبريق دون أن ينزلق فوق جلدى، فقد

كان الجرح يمتصه. أرى ما يشبه الوريد يقوم بحركة غير عادية، فهو يشرب الماء بنهم كما لو كان حلق فرخ ظمآن. الآن أغلق عينيّ. أحاول فهم ما يجري. أفتحهما من جديد: تلفنى الهندية في ملاءة ناعمة قبل أن تضع البطانية فوقي.

يدخل شبه عدو من خرجوا؛ لقد عاد من صاحبوا الإسباني.

- لقد تركناه، صاحبناه حتى الغرفة ذاتها للتأكد من أن كل شيء على ما يرام.

سألت الهندية: وماذا بعد؟

- كل شيء على ما يرام.

- أما هنا فكل شيء غريب. فهذا الرجل بدون ملابس، امرأة.

لم يبدِ أحد استغرابه ولا نطق بشيء.

- سأقوم بإلباسه إذن حتى لا يكتشفوا ذلك.

وبدأت أمامهم في إلباسى ملابس غيري. وحين أجلستني لتضع لى القميص، رأيتهم. بعضهم جنود وأحدهم على الأقل إسباني؛ أرى بصعوبة، وبغير وضوح، تتلاشى أمامي معالم كل شيء. لم أعد أدرى إذا كانت عيناى مفتوحتين أم مغلقتين، أستطيع أن أشعر فقط بضوء يتحرك، مثل رمال تتساقط، مثل شلال من رمال وأشعر بدوار. لا أكاد أشعر بالأيدى الأربع التى تلبسنى ولا الأعين التى ترى أننى امرأة وهى تمتهننى. ولا أستطيع التوقف عن شرح ما

يحدث لى بالكلام. لماذا أفعل ذلك؟ لماذا أحكى لنفسى ما يحدث؟ ولا أتوقف أيضا عن سماع ما يقولون بوضوح بالقرب منى. ولكننى لا أفهمهم. لا تتمكن كلماتهم من النفاذ فى رأسى.

موت بلا اكتراث

أقول لنفسى الآن وأنا أستيقظ بصعوبة: لقد نمت مثل فأرة نوّامة. وفجأة أتذكر أين أنا، لقد بدّلوا لى ملابسى وأنام فى سرير رجل آخر... أسمعنى أقول لنفسى ما سيحدث ولا أحاول محاربته. أتحكم بالكاد فى ذاتى، يهزوننى كى أستيقظ، يجبروننى على شرب فنجان من القهوة، يحسنون هندامى ويضعون لى الحذاء ذا الرقبة، ويتمكنون بصعوبة من جعلى أقف. لم يزل بعد تأثير ما وضعوه لى فى كأس، حقًا لم أعد مشلولة ولكننى لا أقوى على تحريك عضلاتى. يجلسوننى من جديد، يعطوننى فنجانًا آخر من القهوة كادوا أن يحرقوا به شفتى. يجعلوننى أقف مرة أخرى، لم أعد أشعر بأننى سأسقط.

يقول لى أحدهم، وهو هندى: إنهم هنا .. لم أعد أرى إسبانًا حولى.. لا تنطقى بكلمة.

يحملنى اثنان من كلتا ذراعى حتى الخارج، نعبر ممرًا طويلاً، ثم الفناء حتى نصل إلى البهو. أجد بانتظارى هناك بعض الرجال

بملابس سوداء. لا يرفع أى منهم عينيه، يبدو أنهم خجلون فهم يثبّتون نظرهم فى الأرض. أشعر آن من واجبى القول:

ـ عفوًا، أشعر أننى مضطرب بعض الشىء...

ما زال الخادمان الهنديان يسنداننى. يأتى ثالث بمقعد أهوى عليه. يقوم أحد الرجال من ذوى الملابس السوداء بمد ورقة لى ويتركها بين يدى. أفتحها لأقرأ:

"إسبانيا الجديدة. ١٩ أغسطس من عام١٥٧١"

"سعادة الكونت أنريكيه دى أوركيثا ورييا دينيرا".. إنه أنا. أرفع عينى لتأمل فخامة البهو. إنه منزلى. أعود ببصرى إلى الورقة، ثم إلى الأسفل بقليل أجد "تآمر"... "مشنقة". أقفز الكلمات كلها لأصل إلى التوقيع: "أمين سلطة الملك فيلبى الثانى، سعادة نائب الملك دون..." إلى آخره، إلى آخره...

أمد يدى بالورقة لأعيدها إلى من أعطاها لى. يأخذها بسرعة، وكأنها ستحرقنى. أفحص البهو الذى يخصنى مؤقتًا: أخيرًا، أنا غنى وفارس ونبيل ومن أصل عريق. إنه عزائى، أن أموت وأنا على حال كنت أتمناها وأنا حى.

ـ يا سيدى الكونت... نحن...

صَمَتَ. قمت بحركة بيدى تعنى فيما يبدو "لا داعى للقلق، ليكن ما يكون".

ـ إن عربة الوالى فى الانتظار بالخارج.

يساعدنى خادماى على النهوض ويقودانى نحو الخارج.

نخرج. أدير رأسى لأرى بيتى: قصر عظيم، أمام رصيف "تابوكا" الممتد. أظننى تعرفت عليه. يضعانى بشبه هرجلة فى عربة نائب الملك. عجبًا، لا بد أن الكونت "أوركيثا" له شأن كبير بحيث لا يقودونه إلى السجن وإلى المشنقة فوق ظهر بغل. شأن كبير إلى درجة عدم سحبه عبر الشوارع قبل تنفيذ حكم الإعدام. تنطلق العربة. علىَّ أن أستجمع كل قواى حتى لا أسقط من فوق المقعد. أطل لأجد خدامى يتوددون إلىَّ، تقترب من بعيد الخادمة ذات اليدين الدافئتين. أتذكرها وهى تقوم أثناء نومى بإعادة صب الماء من الإبريق فى الجرح الظمآن. يؤلمنى الآن صدرى بالفعل. على كل، لا أجد جفاء بينى وبينها، فهى تمنحنى الاطمئنان بل والسرور. ليس الوقت وقت إعجاب، يا للهول، إننى ذاهب إلى المشنقة. لكن ـ يا لحالتى المعنوية غير المعقولة ـ يتوافق معها إيقاظ أقوى لوعيى، أشعر بأننى فى حالة أفضل ومعنوياتى جيدة للغاية. لا أخاف. لا بد أنه من أثر كأس ليلة أمس، هذا الجلَد وهذا الاطمئنان الغبى.

نصل إلى بيت نائب الملك ومستشاريه. تتوقف العربة. هنا يقع السجن الملكى الذى سوف يودعوننى فيه قبل حملى إلى سقالة الإعدام. أستطيع الهبوط بنفسى فلم أعد ضعيفًا ولا أشعر بدوار. ندلف. نعبر الممرات ذات الأقواس الحجرية الجميلة. القاعات والمنصات ما زالت خالية. لا بد أن نائب الملك والمستشارين وعائلاتهم موجودون هنا بالداخل فى ركن ما، فهم يقيمون هنا،

ولكنهم لا يظهرون حتى لا يروا النزيل السجين، الكونت "أوركيثا"، لم يصل بعد موظفو بيت المال ولا أى فارس يقوم بتجربة العملية الخاصة بذلك. وفى الميدان تحت قوس حيث يسقط شعاع شمس الصباح الباكر دافئًا، يقوم عربى جميل الطلعة، جالس فوق وسادة من القطيفة، بغزل حرير بانهماك يجعله لا يلتفت إلينا. ندخل زنزانتى. وأقول ندخل لأن الهندية ذات اليدين الدافئتين طلبت السماح لها بالدخول معى. وبمجرد إغلاق الباب، تلصق وجهها بأذنى، حتى لا يسمعها أحد، وهى تقول لى: "سيدى. أيها الفارس الفرنسى. أنت، الرجل بملابسك والمرأة بلا ملابس، لا تستحق الموت. لن تموت اليوم على المشنقة، أؤكد لك. اسمح لى فقط بأن أفرغ المزيد من الماء فى جرحك. إنه من بحيرات الزمن القديم. كان ماء على قدر من النقاء يجعله بالرغم من ركوده فى أوان من الفخار منذ عشرات السنين، لا تظهر عليه آثار التعفن أو الركود. يحمل الماء طعم كل بحيرة، حلوًا أو مالحًا، ومن كل قناة مضطربة هنا. فيه شفاء للناس منذ آبائنا وأجدادنا الأولين وهو لم يحل أبدا فى بدن إسبانى". تابعت كلامها - بينما أعطى ظهرى للباب، وأفتح ملابسى وأخرج ثديى الأيسر، المفتوح ولكنه لا يدمى -: "كان ماء نقيًا إلى درجة أن أجدادنا لم يكونوا يفرغون فيه حتى بولهم. كانت تمر يوميًا زوارق لجمعه. أما البول، فكانوا يخرجونه من تميكستيتان ومن الأحياء، ويستخرجون منه مثبتات للرسم والأصباغ التى كان يستخدمها فنانونا العظام، والمواد الرطبة التى كانوا يغمرون فيها خيوط التطريز أو يستخدمونها فى صناعة الأقمشة. لم تكن

أقمشتنا وقتها بيضاء... لقد ملأت الإبريق بهذا الماء ليلة أمس وقمت صباح اليوم بملئه مرة أخرى. إبريقان كاملان سيحميان دمك من الموت. إنها مياه نقية للغاية لم تمسها عادات الإسبان لا بأحصنتهم ولا بقاذوراتهم. أنت لست رجلاً ولا امرأة، لست ناهوالت ولا إسبانيًا ولا مولدًا ولا كونتًا ولا وصيًا، إنك لا تستحق الموت. يقولون إنك أتيت من البحر وإنك كنت مع من كانوا يسلبون الإسبان ما كانوا يحملونه من هنا. إنك لا تستحق الموت".

تتوقف عن صب ماء الإبريق فقد أصبح ثديى ممتلئا به. أنظر إليه بدهشة وأبدأ فى إيداعه بصعوبة بين ملابسى، كان إخفاؤه يمثل مشكلة لى نظرا لكبر حجمه. نجحتُ أخيرًا فى ذلك. تتابع هى كلامها:

"عندما تتدلى من المشنقة، لا تفعل شيئًا. تصنّع الموت. دع جسدك يدور بثقله. لا تتحرك. لا أدرى متى سينزلونك. وإذا ما أطلّت، لا تخش التبول أو التبرز فى سروالك فكل الأموات يفعلون ذلك. وعندما ينزلونك، سأكون هناك. سأغطيك وأحملك إلى البيت. أما عن عملية الدفن فسوف نتحدث عنها فيما بعد".

تتوقف عن الكلام. ثم تقوم بحد حجرها المسنون بشق جرح صغير فى جبهتى، ثم تجلس القرفصاء مشيرة لى بإيماءاتها بأن أريح وجهى فوق حجرها. تسكب فيه القليل من الماء المتبقى فى الإناء وهى تردد: "تسيلويكى، تسيلويكى، تسيلويكى...".

ـ ماذا تقولين؟

ـ تسيلويكى تعنى "شىء قد زال"...

إننى مقتنع مثلها تمامًا بأننى لن أموت؛ لأمرين: لأن هذا الاعتقاد يريحنى وللثقة التى توحى لى بها الآن وأنا أودع رأسى الضعيف بحجرها. إضافة إلى أنه إذا ما كنت سأموت فإن شعورى بالموت سيكون هينًا وليس هكذا...

تطلب منى النهوض، تقف وتخفى الإبريق فى دثارها الهندى. تطرق الباب، يفتحونه لها لتذهب دون أن تلتفت للنظر إلىَّ. أبقى وحدى لوقت قصير جدًا؛ أسمع صوت رفع المزلاج ودوران مفتاح بابى. يدخل قسيس الاعتراف.

ـ كونت...

لا يوجد أى أثاث فى زنزانتى. لا أريد أن أظل واقفًا. أجلس على الأرض. أضع وجهى بين يدى. ماذا أقول لهذا القسيس؟ كيف يتم الاعتراف؟ وإذا كان الأمر يتعلق باتهامى، فما هى تهمتى؟ أباعد قليلاً بين أصابعى لكى أراقبه. إنه واقف أمامى ملتصق بالباب، ينتابه الخوف. أشعر باطمئنان، أصمت. أعود لفصل أصابعى فأراه قلقًا ومنزعجًا وشبه مرعوب. هل وشى بى؟ وبماذا؟ إنه يضع على صدره كتابه المقدس على شكل شعار.

وبدون إزاحة يدى عن وجهى، أقول له: فى لعبة الورق يتحتم أن تأتى اللحظة التى يتم فيها كشف الأوراق. ومن يشك فى الولد يظهر له الدينارى والملك وأربعة آس. يحدث نفس الشىء فى الحياة.

وما إن أنتهى من جملتى حتى أرى أنه من الغباء، إلى حد ما، أن أتحدث، أنا الكونت "أوركيثا"، عن ورق اللعب. فالفارس لا يضعه بالمرة بين يديه. ولكن القس الدنس لا ينتبه لهذا، يقول فقط:

- نعم، أنت لا تحتاج إلى الاعتراف. لم تمض خمس عشرة ساعة عن الأول. أستطيع منحك القربان المقدس والمسحة.

أقول بإشارة برأسى "لا" فى حركة اعتبرتها لحدتها مقنعة للغاية.

- إن القربان المقدس يدل على شىء مقدس لأنه يطهر الإنسان.

أقول مرة أخرى "لا" برأسى.

انطلق القس باللاتينية لعدم ارتياحه لليد التى تحجبه، يقتله الخوف، بقوله: حسب التعاليم الإلهية، فإن الرحمة والعدل كلمتان لا تعنيان فقط الحكمة بل تدلان عليها.

أجيب "لا" برأسى، ولكن تنطلق أيضا من فمى "لا" شرسة نتيجة نفاد صبرى.

- المسحة...

- إذا لم تخرج من الباب، سأدق عنقك وأجعلك تعبر أبواب السماء بدون مسحة.

يطرق الباب. يفتحون له مباشرة ليخرج مسرعًا.

أبقى هناك جالسًا، عن رضا، أفكر فى الحالة السيئة التى وضعت الكونت فيها... لا أعتقد أن الأمر يهمه فى شىء، فهو يعلم

أنه ترك سمعته فى يد قرصان لوترى... أعتقد حتى هذه اللحظة أنه كان علىَّ أن أظهر له وجهى لكى يمعن النظر فيه وأجعله يسمع صوتى بتأنٍّ ليرى أننى لست المقصود، إنهم سيحملون المزيف إلى المشنقة... إننى مشوش، لا أستطيع التفكير...

الجميع فى عجلة للتخلص منى... لم أمهل الوقت لأى شىء، كنت أرغب فى المغامرة بتخيل كيف هرب الكونت من المكسيك صباح اليوم وهل سيتركونه يرحل أم يجبرونه على البقاء حتى التوصل إلى اتفاق يرضى الطرفين، عندما دخل هؤلاء الغربان الذين قبضوا علىَّ صباحًا. لقد جاءوا فى طلبى. فإذا كنت قد وضعت الكونت فى موقف صعب فى اللحظات الأخيرة، فإننى أستطيع الاستمرار...

ـ كل شىء معد، هيا بنا. لا أعرف لماذا أحضرونى إلى هنا. لا أفهم هذا. لم يتوجه نائب الملك ولا المستشارون لتحيتى، ولا يوجد فى الزنزانة لا منضدة ولا مقعدًا أستعين به. قلت "لنذهب". يسرنى الخروج من هنا رغم أن المشنقة لا تروقنى.

لو أن سيفًا بيدى لقطعت رأس هؤلاء البحارة المخنثين الذين لا يستخدمون سيوفهم إلا قليلاً. وأعد بألا ألمس مؤخراتهم الثمينة فهى أهم ما فى شخوصهم. ولكننى لم أقل هذا. أكاد أقوله. أأقوله؟. لا يرافقنى خدمى الآن وإنما جنديان.

أقول: أيها السيدان! ولكن لا أحد يغامر بسماع حديثى. لماذا إذن أقوله وليس عليهما سماعه؟

نحن الآن خارج القصر النائم. فى أحد جوانبه جيش من العمال الهنود يعمل كالنمل لإقامة معبد خاص بالعاصمة. بعد عبور ترعة القصر نجد معبد الأزتيك العظيم. كنت قد توقفت فى اليوم السابق بين المعبدين أتابع ذهاب وإياب حمّالى الحجارة التى يجلبونها مما تبقى من المعبد الأزتيكى ليشيدوا بها الخاص بالعاصمة. حجر تلو الآخر، يهدمون ليبنوا الخاص بالمسيحية. موسيقى خلفية لصوت رهبان يتلون عليهم باللاتينية، وهم فى ذهابهم وإيابهم مجبرون. خيرًا يفعل الرهبان الذين لا يقومون سوى بزلق الكلمات من أفواههم. وأنا الآن فى عربة نائب الملك، من جديد، فى طريقى إلى المشنقة. هل يخشون قيام أحد بالدفاع عنى؟ لا أحد هنا يدافع عن شىء. إنهم يسمحون بهدم معبدهم دون النبس بكلمة، وماذا أقول وهم ينقلون بأيديهم الحجارة إلى الكنيسة المسيحية؟ ما الذى يمكن انتظاره من هذا المكان؟ لا بد أن وجود عربة نائب الملك كان لهدف آخر. ربما لرغبته فى أن يقال إنه يعاملنى كفارس حتى اللحظة الأخيرة على الرغم من خيانتى له وبأننى الغادر وليس هو. لا بد أنه كذلك.

يحتوى الطريق المرصوف العربة والموكب دون أن تبتل أقدام الآخرين فى المصرف الرئيسى. ولكننى أشعر، بشكل لا أستطيع تمييزه، أن جسمى يأخذ فى التمزق على جانبىّ بحيث إنه سيُخلّف، مع تقدمنا فى السير، ملابس وخرقًا من اللحم على الواجهات، لأننى أشعر بانتفاخى إلى درجة الانفجار، ربما يكون هذا بسبب صدرى المنتفخ بالماء والذى حزمته بقوة داخل ملابسى الإسبانية،

ولكننى، وعلى الرغم من علمى بأننى لن أموت، أخاف المشنقة، فقد بدأ الخوف يتسلل إلىَّ ولكنه يتقدم بسمو يجعلنى شامخة كما لو كان الرعب قد امتزج بشموخ الكبرياء...

وصلنا إلى ميدان السوق. أهبط من العربة نحو الحشود وأتسلق الدرج نحو الموت. أنظر إلى أسفل، لا أحد يقترب لمشاهدة عملية إعدامى، عجبًا!، يظل حشد السوق على حاله، لم يؤثر فيه احتفالنا.

لا يحيط المشنقة سوى خدامى. المرفآن الصغيران على حالهما بمراكبهما وزوارقهما راسية فى المياه. يضعون حبل المشنقة حول رقبتى وأنا بلا مقاومة فبالكاد أملك القوة، وتسيطر علىَّ هذه العادة السيئة بعدم التعبير عما فى داخلى مما يجعلنى عاجزًا عن القيام بشىء. أخذ الهنود يدقون الجرس الواقع بوسط السوق الكبير. يرفع الجميع وجوههم لمشاهدة موتى، ولكن يظل الكل على حاله، فمن يحمل فى يده سلة لا يتركها والذى يأكل المامى[١] يستمر، والأم التى تمسك بذراع ولدها تبقى على حالها، ومن يلمس الخيتوماتيه[٢] لا يبعد أصابعه عنها، كما لو أنه ليس هناك ما يمكن أن يؤثر على نظام السوق وترتيبه. المتغير الوحيد هو أنا، حين تختفى الألواح التى أطأها بقدمى. أتأرجح بخفة، أشعر بالضغط على رقبتى، وبدون معرفة السبب، يبدأ الحبل فى الدوران. أبدأ فى الدوران وأنا معلق به، أدور فى عجلة موتى الذاتى. لا أستطيع التنفس، ولا رشفة هواء صغيرة، لا أحتاجها فأنا حى. لا أشعر بالخوف. عاد جسدى إلى حجمه السابق.

لقد أنقذتنى مياه البحيرات.

أتخيل أننى أسمع أمواجها الخجلى بداخلى. أستنشق نقاءها وتنوعها، فهى ليست بنتانة تلك التى تئن راكدة أسفل المراكب والزوارق وكأنها مرتع ملوث لقطيع مريض. أرى، فى عينى المغلقتين، المدينة القديمة بمعابدها البيضاء المكسوة بلوحات من الجص ونقوشها وتماثيلها. أراقب السوق المكتظ، وقاضى السوق فى أناقته الغريبة، يديره وهو متكئ على جنبه. يستمر الحبل فى الدوران وأنا ما زلت أرى تيمكستتيان على حالها، أقطعها من هنا إلى هناك بدهشة، عبر عينى المغلقتين، لكونها لا تشبه فى شىء أى مدينة على وجه الأرض، أزور قصر "تلاتوانى"، وأرى رجالاً، عقابًا على سكرهم، داخل أقفاص فى نفس المكان الذى أتدلى فيه الآن من المشنقة، وحين يحملوننى من فخذىَّ لفك الحبل وإنزالى، تمر عبر عينى مشاهد مضحكة لمعارك. أرى فيها الإسبان ودروعهم وملابس المحاربين الهنود وتروسهم المرصعة بالذهب والأحجار الكريمة والريش.

أشعر بداخلى باليدين الدافئتين للهندية، أرغب فى أن أقول لها "لقد رأيت مدينتكم"، ولكننى أصمت صمت الميتة مذعنة لها. ماذا لو أخذت فى الكلام؟ لهرب حتى الجبان! وهيهات لماء بحيراتها من إنقاذى من التمزق إربًا نتيجة الهلع.

يعبر صوت الماء شراييني كما تجرى الريح فى مضيق. مروره الرقيق يكسو جسدى وذاكرتى ليُرتب من جديد كل شىء بطريقة مختلفة، الأشياء والمشاعر وأجزاء ذاتى.

أرى نفسى بطريقة أخرى. أتذكر أمى. أراها تجعلنى أضع الملابس الرجالية منذ نعومة أظفارى لأستطيع مصاحبتها من مكان لآخر، فى مشوارها الطويل كعاهرة وهى مسافرة بجوار جيوش؛ أرى الجنود وهم يدربوننى على استخدام السلاح، ولكن على الرغم من كثرة ما أرى، لا أستطيع تذكر اسم أمى ولا اسمى (كذكر وكأنثى)، وأجدنى أراها ميتة برصاصة بالصدر وسط جلبة مجموعة من السكارى كان كلانا يستهزئ بهم على حد سواء دون أن نتخيل أن رصاصة طائشة مثلهم يمكن أن تنطلق أثناء ترنحهم لتؤدى إلى انفصالنا للأبد. أرانى ساكنة أمامهم حتى يقوم الكولونيل بجذبى من ذراعى، كنت فى العاشرة، انضممت لخدمته وتلاشى ثلاثتنا أمام عصف الريح، على الرغم من أنه، بالفعل، وحتى هكذا، وفى الذاكرة التى عندما أحاول استجماع نفسى تضيع، أجدنى أعمل مثل دابة، عبداً للكولونيل. كل ما أستطيع تذكره هو الطريقة التى استغلنى بها نتيجة غفلة منى كطفلة حين تلطخت ملابسى ببقع دماء الحيض فاكتشف أننى أنثى، فأرى نفسى أهجره وأزاول حرفة أمى بساقىّ على نفس طريقتها - وسرعان ما أرانى كما لو كنت أخرى بحيث أقيم مقارنة بيننا - مفتوحتان دائما أيضا ولكننى وحيدة، بلا ابنة تساعدنى فى دفع السكارى النائمين عنى، وأرى نفسى أتلاشى كما لو كنت أتسرب من نفسى إلى الأبد. وفى محاولة أخيرة، أرانى وصلت إلى "هونفلور" ومنازلها الخشبية القصيرة وكنيستها الخشبية وطرقها الموصولة وكأنها من خشب وميناء يتباهى بسفينة تود الوثب إلى البحر، مداعبة بإمكانية

مغادرة اليابسة وسمائها المنخفضة دائمًا - لماذا كانت سماء "هونفلور" هابطة؟ -، ثم، قبل رؤيتها وقد التهمها ضبابُها، أرانى مع آخر زبون، أسكره وأسرق ملابسه، وأصعد فى آخر لحظة إلى المركب التى قمت قبل أيام بجذب أخى المزيف إليها حيث قاموا بدفع ما يكفى لشراء الخمر الذى استخدمته فى تنويم هذا البرىء وبواقى الطعام الذى أحتاجه للرحلة وما زال معى بعض النقود القليلة حتى لا أصل إلى الأراضى الجديدة صفر اليدين. آخر ما أرى من "هونفلور" هو التاجر التعيس الذى رفض تمامًا أن يبيعنى بضاعة لقذارتى وكذلك النساء اللائى يبدلن أماكنهن فى الطرق الضيقة تحاشيًا للمرور بجوارى؛ فأنا دائما، فى رأيهن، غريبة ومختلفة ومرفوضة ومنفرة... ثم أرى خلال ثانية مركزة محنة رحلتى فى المركب ومحبسى فى قاع المركب والحيل التى لجأت إليها لكسب نقود أخرى ربحت بها حريتى لدى وصولى إلى الكاريبى منها ("- كم تدفعون لى لو أقنعت هذا الشاب بأننى امرأة وأعشقه؟، وغيرها كثير"). ولكننى ما أكاد أحاول رؤية ذلك حتى يتلاشى، كل شىء يتلاشى، الكاريبى والجزيرة وصفقة التهريب والخمارة والقراصنة (الذين يضعون ملابس يصعب تمييز لونها أو مادتها من كثرة الدماء المتخثرة ورائحتهم العفنة) يهبطون لبيع اللحم والجلود وشراء المؤن، أرى حيلى دفاعًا عن نفسى والحادثين اللذين شاركت فيهما بالسلاح، وأرى كيف استطعت المتاجرة فى "ريكابيًا" على حساب النزعة إلى السرقة التى لدى الإسبان... أرى اللحظة التى أدركت فيها أنه من الأنسب لى المغامرة والوصول إلى المكسيك حيث

أراهم يحملوننى عنوة بملابس شخص آخر، إلى المشنقة وإلى الموت.

أى موت؟ إننى أتمتع بالحياة أكثر من طفل. فقد أرقدونى فوق نقالة ويحملوننى فى محفة مغطاة بملاءة بيضاء. أتجرأ على فتح عينى. الملاءة شفافة وهى تسمح لى، ولو بشىء من عدم الوضوح، برؤية الأشخاص الذين خرجوا إلى الشرفات لرؤيتى وأنا مار، ولو أننى لست المقصود وإنما الإسبانى الذى أضع ملابسه. تحُولُ الملاءة دون تمييزهم، أرى أشباحا وأسمع الصمت الذى يصاحبهم. إن المدينة الصاخبة تلفنى فى كفن متآمر مع الصمت. أسير مستندة على محفتى، طائرة على أكتاف خدمى، لا أسمع سوى خطواتهم. يتوقف الجميع لرؤيتى وأنا مار. الأجساد أسفل منى ثابتة، فى الشوارع وأعلى، فى الشرفات. إنه صمت الظلمات وسكونها.

أنا العين المغطاة بلثام والتى يحملها جسد من أربعة جذوع يشكلها خدمى، الشىء الوحيد المتحرك فى هذا السكون المخيف. ولحسن الحظ أركض فتنزلق الملاءة البيضاء بحيث تتكشف إحدى عينى. أقول لحسن الحظ بسبب الخوف الذى تملكنى وظلمة الصمت التى على وشك أن تحدق بهمتى. أرى فى إحدى الشرفات إسبانية سمراء جميلة فى ملابس الحداد بدون طرحة على رأسها الجميل وعيناها حمراوان من النحيب. وعندما تجدنى أنظر إليها، تصرخ:

- إنه يرانى! إنه ينظر إلىّ!

يوقف خدمى الهنود النقالة، ينزلونها من فوق آكتافهم إلى أيديهم. تغلق ذات اليدين الدافئتين جفنى براحة يدها. ثم تقوم بتغطيتى كاملاً بالملاءة من جديد وتقول بصوت عال بدرجة تخطت مستوى صوت صرخات السمراء الهستيرية:

- حتى وهو ميت لا تتركه هذه المرأة فى سلام.

تصمت عاشقتى التى تبكى موتى أو لعلها قد حبست نفسها فى البيت لتحبس الروع والحزن. نواصل المسير لمسافة قصيرة، أنا فى المحفة النقالة وخدمى أسفل منى والمدينة صامتة وساكنة؛ نسير ربما أربعين خطوة ثم ندلف إلى البيت. نعبر البهو والممرات التى سرت فيها صباحًا... يضعوننى فى السرير، يخرج الهنود الذين حملونى على كاهلهم ويغلقون الباب خلفهم.

تغمرنى راحة لا مثيل لها. لقد انتهى الأمر، لقد فررت من المشنقة، لقد ودعت عملية تغيير الملابس... أشعر بالسعادة، أسير من مكان لآخر فى الحجرة دون حذر من شىء سوى نعمة أن أكون حيًا وأتحرك. وبين خطوة وأخرى تفاجئنى شهية شرهة، أتابع السير ومحاولة تجاوزها ولكننى لا أستطيع فصلها عنى. تدخل الهندية ذات اليدين الدافئتين بهدوء تام بحيث لا أنتبه إلا بسماع صوتها:

- لقد روعتنا تمامًا وأنت تتجسس، ألا تستطيع إغلاق عينيك؟ تبدو مستاءة أو غاضبة.

ـ وماذا فى ذلك أيتها الهندية،... آتينى بطعام فإننى أتضور جوعًا. وعمومًا، كان الذنب ذنب الدثار فقد انزلق وعيناى مفتوحتان وكان الأسوأ أن ترانى السمراء وأنا أغلقهما...

ـ لا عليك، لا عليك... يجب أن تنام فى السرير بغير حركة حتى أعود بما تحتاجه وأعد عملية دفنك. وأنا لا أُدعى هندية فجميعنا فى هذا المنزل كهنود نُدعى "كوسمى" بلا استثناء لعدم إرباك "دون أنريكيه".

ـ أعطونى طعامًا فأنا جائع منذ ليلة أمس. أرعبها الفزع لبرهة، لكن..

ـ لا بد من سكونك فى سريرك، فأنت ميت، سآتى فيما بعد...

أراحتنى كلمة "ميت" بالمذكر. ذهبَت وبقيت أنا راقدًا كما طلبت منى. تحولت حالتى المعنوية الطيبة وأنا واقف وسائر إلى انزعاج ساكن. تضيق بى الملابس ويضايقنى صدرى ولكننى أنجح فى النهاية فى التكيف بعد الكثير من الجذب هنا وهناك حتى أصبحت فى وضع مريح وهادئ يسمح لى بالتظاهر بالموت. حتى أحشائى تهمهم من الجوع. يدخل أحد الكوسمى، أراه بعينين شبه مفتوحتين، لا أتجرأ على التحرك. يخرج. تعود ذات اليدين الدافئتين مع نفس الكوسمى.

ـ يا شيطان! ألم تكن جائعًا؟ أرسل إليك الصبى وتتظاهر بالنوم. لنر الآن من سيوافق على إعطائك طعامًا.

ـ لكن، ألم تقولى لى ألا أتحرك؟!

ـ يا مغفل.. أنت رجل وامرأة وغبى أيضًا.

حسنًا أيتها الغاضبة. مسألة أن عينى تنظر عندما لا يجب قد أغاظتها.

ـ يا كوسمى، اغفرى لى. إننى جالس هنا أتضور جوعًا. وأنت غاية فى الكرم معى...

تخرج دون أن يفارقها الغضب. أسأل الخادم:

ـ كوسمى، ما بال هذه المرأة؟ إنها ثائرة.

ـ لا أدعى "كوسمى". أنا "خوان". وهى لا تدعى "كوسمى" وإنما "خوانا". وما يحدث هو أنك تغضبها ـ يقول لى وهو يقرب منى طبقًا به كريات ملفوفة فى أوراق ذرة ـ إنها النعمة.

حتى اسمها لا يمكنها سماعه بدون غضب. أى أحد يعترض طريقها تصبح هكذا. وتحمل له كرهًا، إنها مسألة قديمة...

ـ وماذا أفعل بهذه؟

ـ افتحها وتناولها. إنها "تمالس"(٣) لقد صنعوها فى المطبخ من أجل وجود ميت بالبيت. لأجل "ميتوتيه"(٤) الليلة. جربها لا بد أنها لذيذة للغاية.

ـ ميتوتيه؟

ـ نعم سوف نحيى حفلاً. فلن نترك الميت بلا احتفال.

ـ والميتوتيه؟

ـ إنه احتفال هندى.

يخرج خوان وأجلس لتناول الطعام. أفتح الأوراق فأجد بداخلها نوعًا من خبز الكسابى(٥) طيب الرائحة ورخو يحتوى أيضا على لحم وصلصة وخضراوات حريفة، تم طهوها مختلطة وبحفظها فى ورقة الذرة وبالعجين تكوّن طبقًا لذيذًا. وللشرب أحضر لى "خوان" كوبًا كبيرًا من الكاكاو السائل، إنه طعام آخر. الشيكولاته.

تعود "خوانا" حاملة لفة أخرى بين ذراعيها.

ـ هل انتهت التمالس؟

ـ نعم، شكرًا، لقد كانت لذيذة جدًا يا "خوانا".

ـ لا أدعى "خوانا".

ـ ماذا تدعين إذن؟

ـ سأخبرك فيما بعد. ضع هذا.

أفرد ما تحتويه اللفة فوق سريرى. وزرة؟ دثار هندى؟

ـ حتى لو كنت مجنونًا، لن أستخدم ملابس نسائية.

لا تجيبنى بشىء.

ـ أقول لكِ لا، لن أستخدمها لأنها نسائية. أنا أضع ملابس الرجال فقط.

ـ افعل ما أقوله لك الآن. ولا تبدأ فى جعلى ألح فأنا لا أمزح ولا وقت لدى، سيفاجئونك وأنت تتكلم وسوف يحملاننا إلى المحرقة

نحن الاثنين. ستضع هذه الملابس لامرأة هندية وفوقها ـ تفتح صوان ملابس رائعًا ـ فوقها أفضل بدلة لـ "دون أنريكيه"، فيجب أن تظهر فى التابوت مثل الكونت "أوركيثا". أبدأ بوضع الويبيل[٦] والوزرة وأسمع. إنهم فى طريقهم للوصول بالتابوت. أنت الآن بملابس أخرى ونظيفة ـ اسمع، لم تتبرز ولم تتبول كما قلت لك ـ ستستسلم لوضعك فى التابوت وتتركهم يلثمونك بدون أن تتحرك. أم تريدنى أن أضع لك مرة أخرى فى الكأس ما يجعلك تنام؟

أومأت برأسى بلا.

ـ حسنا، لتبق إذن ساكنًا. وعندما نحملك للدفن وننتهى من سماع الصلوات، وفى اللحظة المناسبة، بمجرد انسحاب القسيس، سأقول "حان الوقت" عندها تقفز من التابوت بأسرع ما يمكن، وتخلع ملابس الكونت وتقفز، وأنت بالويبل والوزرة، من القبر إلى الخارج وتنتظرنى على أحد الجوانب، صامتًا، ثم تنضم إلىّ بمجرد أن أبدأ فى السير. ضع الآن ملابسك ولا تتحرك.

تحضر لى المبولة والطست المملوء بالماء وتخرج.

أطيعها. أضع ملابس الهندية وفوقها ملابس الكونت، أرقد ثم أتظاهر بالموت. يدخلون بعد برهة بحثا عنى. يحملوننى ملفوفا فى ملاءة ويضعوننى فى التابوت، وتتولى ذات اليدين الدافئتين وضع يدى على راحتهما، تمرر شريطًا حول وجهى وتضع لى القبعة وتخفى الدثار الهندى تحت جذعى وتغلق غطاء التابوت وتذهب.

هذا ما لا يعجبنى بالفعل. أن أبقى هنا راقدًا، بلا ضوء، بدون معرفة ما سيحدث لى ومحكوم علىَّ بوضع ملابس امرأة هندية. أفكر كيف يمكن الوصول إلى زملائى ولكننى أتنبه فجأة إلى خطئى: لا أستطيع الظهور أمامهم بملابس هندية. لا يهم، أعيد بناء الطريق الذى سيوصلنى إليهم، أبدأه من جديد فى مخيلتى، وفى غفلة ما لأحد الإسبان غير المحترسين، أستحوذ فيها على سيفه وملابسه، أعلم أننى لست قبيحة فى زينة امرأة وإذا كنت قد نجحت فى ذلك فى "هونفلور" فبإمكانى فعل نفس الشىء فى إسبانيا الجديدة. بمثل هذه الملابس أصل إليهم وأروى لهم مغامرتى (مع حذف الخاصة بمرورى بالتنورة) وينتهى هذا. ولكن مجرد تخيل هذا يزعجنى. فأنا لست ممن يعيشون فى سكون وإنما للعمل والإقدام وشغل الجسد والعقل بأشياء يقينية وجلية. أعيد بناء المشاهد بطريقة أخرى ولا أنجح، فهناك ما يعرقل ذلك. إنه هذا التابوت اللعين، فأين من يستطيع الراحة وهو مغلّف به؟ يجثم أحد معصمى على صدرى المفتوح ويبدأ فى مضايقة جرحى، ولكننى لا أستطيع الحركة؛ لا أدرى ما إذا كان هناك من يسمعنى فى البهو، قد يستطيعون سماعى. يسيطر معصمى على عقلى، أعتقد أن فتحة صدرى ترغب فى عضه، تسرح أفكارى فأرى نهدى عاريين ورجلاً نهمًا يقترب منهما وأراه حين يطبق طرف عينه على الجرح فينقض هذا عليه ويعقره... يأكل صدرى المفتوح! لا أقاومه وأزيل معصمى من هناك، ما زلت أخفض ذراعى أكثر، أبعد يدى أيضًا، إن الصدر ينبض بالفعل، لعله قادر على أن يأكل... ما هذا التفكير

الغبى! إنه بسبب هذا الكلام اللعين الذى أشرح به كل ما لا أستطيع التخلص منه... التابوت والصدر المجروح والويبيل الذى على ردفى.

يمر الوقت وأنا ما زلت على قلقى الغبى.

أعتقد أننى بقيت نائمًا. أعتقد أننى مستيقظ. يدقون الطبول قريبًا من هنا، أسمع غناء باللغة الأصلية. ربما بدأ الميتوتيه.

حفل بالطقوس الهندية، إنها جنازة لا تليق بكونت. لكن، من تراه سيأتى لرؤيتى؟ لا بد أن لنائب الملك أناسا ترقب خارج قصرى من كانوا يتآمرون معى. ومن جهة أخرى، لماذا يأتى؟ فليست هناك أرملة، فمن تحبنى لا تستطيع أن تطأ قدمها البيت بسبب هذه الهندية شديدة التسلط؛ وليس هناك أقرباء، ففى بيت الكونت لم يتبق سوى الخدم الهنود. وأنا من كان علىَّ القيام بدور جسده، كم أسىء فعل ذلك بهذا اللباس الملتصق بجسدى لامرأة هندية.

يفتحون تابوتى. تداعبنى إحدى الهنديات وتقول لى أشياء بلغتها بنغمة عذبة وتذهب ثم تأتى بعد ذلك أخرى لتفعل نفس الشىء، وأخرى ويضعن شفاههن علىَّ ثم يبدأن فى ترك أشياء عند قدمى وفوق بقية جسدى. غير مكتفيات بذلك، تقترب كل اثنتين منى لتلمسانى وتتحسسانى وتضعا أشياء حولى. لم يتركننى لحظة واحدة طوال الليل، كما لم يتوقفن عن تحسسى وترديد كلمات غاية فى العذوبة مع تقريب أنفاسهن منى. وعند الفجر، تجىء ذات اليدين الدافئتين لتزيل ما قد أخذن فى وضعه فوق جسدى ثم تتركنى وحيدًا ليحل محل ما كانت تزيله انزعاج شديد لم أكن أشعر به أمام هذا الكم من الملاطفة والتدليل.

لم أمض فى حياتى، حتى وأنا عاهرة، ليلة بهذا الكم من المداعبات. أضف إلى ذلك أننى بهذه المناسبة رجل ثرى وأضع الملابس الراقية، فأنا الكونت أوركيثا. أنا سعيد.

أدع النوم يغلبنى. أحاول عدم السماح لهم بإيقاظى. أتركهم يضعون غطاء التابوت، يناسبنى الظلام؛ أدعهم يحملونى فأنا أحتاج إلى الهدهدة.

أتكهن بوصولنا إلى الضريح لأن صوتًا قويًا لرجل هو ما يودعنى باللاتينية. ينزلون التابوت وأنا بداخله. وهناك، فى الأسفل، لا أسمع شيئا، أعتقد أننى لن أستطيع سماع ما ستقوله لى الهندية. لا يجب أن أنسى خلع الحذاء ذى الرقبة. لا يجب أن أنسى... إذا كنت لا أسمعهم، فهم لن يسمعونى البتة، وعليه بدأت فى فك أزرار الملابس الإسبانية. لم تكن هناك مشكلة مع القميص، فلم تكن الأزرار الخلفية مغلقة... الياقة... السروال الطويل... تتوقف الهمهمة باللاتينية. يقترب صوت الهندية من قبرى. تقول شيئا بالهندية لا أفهمه. تيكوكانى، يايكسبان نيتيه، تلاياناكيا... ثم مختتمة ككاره الشىء، شبه صائحة "حان الوقت"، ثم تبتعد مع آخرين وهى تقول "تلاماريثبولوليثنيثكايوتلى يانكويك ميككاتلاتاتاكتلى"، أقوم أنا سريعا بفتح التابوت والتخلص من الحذاء ذى الرقبة وما تبقى من الملابس الإسبانية وآخذ دثارى وأقفز وأغلق التابوت، أحاول الخروج من المقبرة ولكن، بمجرد لمس الأرض حديثة الحفر تنهار وتسقط. يصبح من المستحيل علىَّ

الخروج. وبكل قوتى (وهى ليست كبيرة فجسدى متيبس من عدم الحركة) أرتمى فوق التابوت محدثًا جلبة. يسرع حفارو القبور والهندية ذات اليدين الدافئتين وخدمى لاستطلاع الأمر، جاءوا وهم يحملون الزهور والدثر القطنية والقرابين المكونة من الشموع والفاكهة التى سيضعونها فوق قبرى. أنظر إليهم وأنا واقفة ومعجونة بالطين، يتملكنى الذهول والبكاء مرتسم على وجهى، وكأننى أقول "لقد سقطت" ولا أعرف بحق الشيطان كيف يقال ذلك بلغتهم. أحاول إظهار مدى الرعب الذى أشعر به وأنا بالداخل وهو أمر حقيقى.

تقول ذات اليدين الدافئتين: اللعنة مع هذه!

أرد: أطللت فسقطت.

تنطلق الهندية فى الحديث بلغتها، لا أنصت لها لأننى أفعل كل ما بوسعى محاولاً الخروج ولكن هباء.

يلقى إلىَّ حفارو القبور بحبل، ربما الذى استخدموه فى إنزال التابوت، أمسك به ويخرجوننى من قبرى. يغضب منى الجميع للغاية وينهروننى بلغتهم، وتضربنى الهندية بدثارها، أنا الآن امرأة قذرة من رأسى حتى قدمى. يسرع حفارو القبور بدون أى تكليف بإهالة التراب بالجواريف حتى يغطوا التابوت. وعلى بعد أمتار، بقية خدمى وأبصارهم إلى الأرض. أخذنا ننظر بوقار كيف يقومون بدفن ملابسى الإسبانية. لا أدرى ما أشعر به، إنه إحساس غريب جدا أو لعلها الوزرة التى أضعها أو الرعب الذى مررت به توًا، وما

أدرانى، ولكننى هنا أبكى، تنساب العبرات الثخينة على وجهى فتبيضه، أدرك ذلك لأننى أمر عليه بيدى لأمسحها، علىّ أن أحمل شكل الهمج الذين رأيتهم عندما كنا نعبر جزيرة "لوس ساكريفيثيوس". إذن، لا بد أن أبدو بوجهى المطلى بالطين مثل آكلى لحوم البشر ولا بد أن منظرى أسوأ لأن الطين الذى يغطى وجهى من تراب دفن الموتى. إن هذا القناع يساعدنى على الشعور بحقيقتى وأن أنسى المشاعر الغريبة التى تثيرها مياه البحيرات قبل أن يمسها البول والدماء والجشع والخراء الأجنبى، إنه الماء الذى يجرى فى دمى.

نغطى القبر بالقرابين. نسير خارج الضريح مع بقية الخدم الذين كان يفترض أن يشكلوا الموكب الجنائزى المتواضع للكونت. لا أحد يوجه لى أى مشاعر. لا ينطق أحد بشىء. نسير فى صمت. يا لغرابتهم، يمضون الليل فى الميتوتيه تكريمًا لموتى، والآن يسيرون بجوارى دون الاهتمام بأننى حية أرزق.

بعد السير لمسافة، يقول لى أحد الهنود: أنا كوسمى. لا تترك وجهك غير نظيف، هيا خذ.

يعيرنى منديلاً كبيرًا أحمر. وعندما يجد أننى لا أفعل شيئًا، يأخذه وينظف وجهى بنفسه.

قال وهو يحفظ منديله المتسخ حين تابعنا سيرنا: قل لى وأنت العليم، قل لى كيف هو البحر؟ قالت ذات اليدين الدافئتين: إن البحر مثل القدر المملوء بالماء المالح دائم الحركة إلى حد ما، ومن يركبون البحر يصبحون شيئًا لا يذكر بسبب الاهتزاز، فبمجرد أن

تطأه أقدامهم يصبحون صغار الحجم. لذلك فهم يرونه ضخمًا ويعتقدون أنه لا نهائى. وعليه فإنهم عندما يعودون إلى اليابسة يظل قلبهم صغيرًا. ولا يعاود النمو أبدًا. حذار من هذه الهندية، كوسمى، فقد وطأت البحر...

- لماذا تجيبين أنت؟ قل لى أنت يا فرنسى، كيف هو البحر؟

قال خادم آخر بهزل: إننا لم نسألك حتى عن اسمك. أنا دييجو، لخدمتك.

- حسنًا، إن البحر يا دييجو - كيف أقول لهم إننى لا أتذكر حتى اسمى؟ - إن البحر.. أحاول أن أتذكر شيئا عن البحر. أغلق عينى وأومض بين أجثاث ذاكرتى لونًا شديد الزرقة لانهائى. أفتح عينى فأرى خدمى ينظرون إلىّ. اسمى كلير - لماذا أقول لهم ذلك؟ وأضيف بلا انقطاع - البحر هو المكان الذى نرى فيه الدنيا كلها. ففيه كل شىء حتى القدر بالملح، ونجده فى أى مكان كاملاً. أما خارجه، على اليابسة، فكل شىء نراه مقسمًا. انظروا - أشير إلى ناصية سور معبد ضخم مجزوز أمام سماء مصبوغة بلون أزرق قوى وساطع - لماذا أوقفوه عند هذا الحد بالذات؟ لو كانت هناك مبان فوق الماء ما انتهت أبدا أو لانتهت متى سئمت. كل شىء فى اليابسة يكون مقصومًا ومفرقًا ومجزأً ومقسمًا... لا يوجد أبدا شىء كامل...

قال كوسمى: هذا حقيقى، ففى المكسيك يحد الماء اليابسة وجزء منها مالح، ولا بد أن ما فيها غير مقسم أيضا. ولكن لا، لقد شاهد ذلك على ناصية الدير. ولم ير بعد شيئا...

- سنذهب إلى الضواحى الآن فقد وصلتنا إشارة من الكونت بمواعدتنا هناك. أعتقد أن شخصًا ما سوف يسلمنا رسالة ونقودًا. إن الهندية ذات اليدين الدافئتين فى عجلة من أمرها.

لا أريد أن أطيل النظر. أريد الذهاب إلى حيث لا يمكن لأحد أن يتعرف علىّ بهذه الوزرة؛ وحيث لا يستطيع أحد أن يعرف مرة أخرى أن أسفل هذه الملابس أملك جسد امرأة وأننى فعلت ذلك لأجل أن أحل محل ميت وأن بانتحالى شخصيته قد فقدت كل شيء.

حول كيفية تحول الفرنسية إلى هندية

من المناسب هنا تذكر الجمل التالية لثريانتيس دى سالاثار:

"الفارو: على من تنادى يا خلاس؟

سواثو: على الهنود الإسبان

الفارو: كن أكثر وضوحاً

سواثو: على اليتامى المولودين لأب إسبانى وأم هندية"

سرنا متجهين إلى خارج المكسيك حيث ينتهى الطريق ببحيرة، بينما فى نواح أخرى ينتهى بيابسة، حتى وصلنا إلى مقصدهم. وعلى الرغم من أن الأمر يبدو اصطناعا بعيد الاحتمال، فقد وقع لى فى نفس المكان والزمان ثلاثة أحداث. ولكنه ليس احتمالاً، إنما حقيقة.

ففى اللحظة التى وصلنا فيها إلى الصنادل التى بناها القائد الأول فى إسبانيا الجديدة من أجل القضاء على مدينة الهنود "تميشتيتان" حيث يوجد الآن مراس فوق طريق موحل تغلب فيه اليابسة على الماء، على وشك التحول إلى حجر رملى حيث انخفض منسوب البحيرة كثيراً خلال السنوات الأخيرة، وقعت ثلاثة أشياء. ولكن، كيف يمكن لى أن أرويها؟ فالكلمات التى تنسب إليها ليست واحدة، كما أنها تحتل حيزاً يفوق الأحداث التى لو تقاسمت الزمان والمكان دون الانتماء لنفس الموضوع، فإن الكلمات لن تتطابق مع الأحداث. وعليه فإننى أعطى الأولوية الاختيارية لأحد الأحداث

الـثلاثـة، دون أن يُفـهـم من كلامى أن هــذا الحـدث وقـع أولاً، لأنه، أكرر، يقترن بالحدثين اللذين سوف أعرض لهما فيما بعد.

ننظـر فى صمت إلى امتداد البحيـرة الجافة فى أغلبها. يصل رسول أبيض مترجل ويسلم شيئا إلى ذات اليدين الدافئتين دون أن يوجه لنا أى كلمة. تأمرنا "خوانا"، إذا كان هذا اسمها، بأن نتجه إلى البيت. ونفعل، كل واحد منهم غارق فى تفكيره وأنا فى لا شىء حيث كان الشقاء برؤيتى بهذا الزى، وقد كشفت هويتى كامرأة، لا يعطينى القوة لأستجمع تفكيرى. نصل إلى البيت. يعج الفناء بآثار الحفل الهندى. يحددون لى إحدى حجرات الخدم (وهى فخمة إلى حد ما) وتختًا للنوم ويصطحبوننى لتناول الطعام فى المطبخ الرحب حيث يتحدث الخدم جميعًا بلغتهم متجاهلين إياى ما يؤدى إلى التزامى الصمت الحذر. ثم ينتقلون إلى تنظيف البيت بعناية لم أعهدها من قبل. حتى أنه كان يمكن تناول الطعام على الأرض التى كانت أنظف من أى قصعة. يذهبون للنوم مبكرًا فى حين أقوم أنا بالتجول فى القصر دون استطاعة تدبير خطة ما ودون أى رغبة فى النوم، إلى أن أسمع دقات الأجراس الأولى للكنيسة القريبة فأضطجع فى الوقت الذى ينهض فيه الخدم ليبدأوا يومهم. وأستطيع مصالحة النوم مع طلوع النهار.

ننظر فى صمت إلى امتداد البحيرة، الجافة فى أغلبها، إلى أن نسمع خطوات حصان يقترب. يأتى فوق مطيتى رجل يضع ملابسى، يستمر حتى يصل إلى جانبنا. يلقى لـ"خوانا" - إذا كان هذا اسمها - بكيس من النقود.

ـ حافظى على بيتى. لقد أمرت بإحضار "بيدرو دى أوسيخا"، الذى يقيم فى راحة مع نائب الملك الذى يستطيع شغل بيتى بلا مخاطرة حتى وصول ابن أخى. علىّ أن أعود.

أنظر إليه بحسد، أرغب فى أن أكون مكانه. ألست كذلك بشكل ما؟ ما عدا تلك الهندية بجلد فرنسى، التى تنظر إليه.

ـ ومن تكون هذه البصاصة؟

ـ إنه هو يا "دون أنريكيه". الفرنسى. علمت أمس وأنا أغير له ملابسه بأنه امرأة...

يقول لى: اقتربى. وأقترب ـ أكثر ـ أصبحت بالفعل ملتصقة بحصانى (ـ نه). يضع حذاءه ذا الرقبة (هذا، نعم، يخصه ولا يخصنى) فوق قميصى الأبيض، وينتقل به إلى أسفل نهدى الأيسر مشيراً إلى حجمه الكبير. يهبط بطرفه إلى خصرى. يقول لى وهو يتحسس ظهرى بقدمه: أديرى ظهرك، جميلة الفرنسية. سأحملها معى.

ـ إذا كان "دون أنريكيه" يريد قتلها... فقد شفيتها. لقد نجت من المشنقة.

عند ذلك كنت قد أصبحت فوق حصانه، فقد أذعنت للذراع التى مدها إلى لأمتطى الحصان، إن هذا جيد بالنسبة لرحيلى من هنا.

ـ لا تذهب بها فسوف تموت لو أبعدتها.

ـ هل ما تقولين حقيقى؟

ـ حقيقى ألف مرة. إنها لا تفيدنا فى شىء هنا ولكنها الحقيقة، لا تستطيع أن تذهب بعيداً... ستكون لك لدى عودتك.

ـ أتقولين بأنها ستموت، إنها فى غاية الصحة.

ـ إننى أقول الحقيقة ولكن، إن شئت، احملها.

عندئذ، يقوم الكونت بحركة بيديه القويتين فيعيدنى نحوه فوق الحصان. يرفع تنورتى ويزيحها عن جذعى، أحاول الإفلات ولكن الخدم يمسكون ساقىَّ ويدىَّ ليكشفوا جرحى ويعروا نهدى. كان الجرح قد اندمل تمامًا. وما زال النهد منتفخًا ولكنه رائع. يضع يده عليه. ليت الجرح كان مفتوحًا فيلدغه وينتقم لى! يفتح سرواله ويرفع وزرتى الداخلية ويباضعنى وأنا موثقة القدمين من جانب خدمه، فوق حصانى، وهو يثنى جذعى إلى الوراء دون أن يعبأ بأن السرج يؤلمنى. وفى ثلاث نفضات قام بالقذف، ولحسن حظى، بدون إيماءات، كما لو كان لم يفعل ذلك أو لا يهمه، وعندما انتهى، قام بإنزالى وأنا نصف عارية بين خدمه. يهمز الحصان وأرى كيف يرحل ويختفى بعيدًا حاملاً معه الهوية التى كنت قد صنعتها لنفسى.

تأمر "خوانا"ـ إذا كان هذا اسمها ـ بالتحرك نحو البيت. يأتى لى أحد ما بالوزرة والدثار وأستر نفسى. نسير وكل شارد فى أفكاره وأنا فى لا شىء فإن تعاستى لا تسمح لى إلا بأن أكرر لنفسى مرة تلو الأخرى: "لا أستطيع العيش بعيدًا عن هنا". نصل إلى البيت، ما زال الفناء مليئا بآثار الحفل الهندى، يخصصون لى فى حجرة الخدم تختًا للنوم ويجعلوننى أتناول طعامى فى المطبخ الفسيح حيث يتحدث الخدم جميعًا بلغتهم غير عابئين بى. ثم

ينطلقون فى تنظيف البيت. يذهبون للنوم مبكرًا بينما أتجول أنا عبر القصر دون أن أحقق الهدوء النفسى لكى أنام، وأنا أعلم أننى سجينة ومهانة بهذه الملابس إلى أن أسمع أصوات أجراس الصباح وأرقد لأنام فى الوقت الذى يستيقظ فيه باقى الخدم ليبدأوا عملهم اليومى.

ثالث حدث متزامن وقع لى هو أننا توقفنا أمام البوارج، التى أنشأها القائد العام من أجل الاستيلاء على تميشتيتان بالاقتحام، وهى على اليابسة. قال "كوسمى":

ـ حسب ما تقولين، لست أدرى إذا ما كان البحر سيطيعنى.

قلت له: إن الماء لا يطيع أحدًا.

ـ سيطيعنى الماء.

ويبدأ فى القيام بحركات بيديه ووجهه وإحداث ضجيج بصوته كما لو كان يستدعى، بإشارات وأصوات، كلبًا أو حيوانًا وفيًا له. عند سماع ندائه، بدأ ماء البحيرة، المنسحب جدًا عنا، فى الاقتراب أكثر فأكثر فأكثر حتى ارتفع وتخطى بارتفاعه البوارج ووصل إلى أقدامنا. ولكن كلمة "اقتراب" ليست دقيقة، لأنه لم يسر وإنما امتد وزاد بحيث إنه مجرد أن توقف "كوسمى" عن حركاته وعن إصدار أصوات بست، بست، بست من فمه، رأينا بأم أعيننا حواف البحيرة وهى تصل إلى أقدامنا.

لم يحدث ذلك بنفس السرعة التى أروى بها.

عندما وصلنا إلى البيت كان الليل قد حل. آخذ فى التجول فى الممرات واستكشاف الحجرات وتفتيش الأدراج والصناديق والكتب، لا أجد مع الوقت ما أفعله فى هذه الليلة الطويلة والخالية تماماً من النوم. أرقد فى الفجر عند استيقاظ الخدم وأتنبه إلى أن ثلاثة أشياء قد وقعت لى فى نفس الوقت، هى التى عرضتها هنا قبل أن أقع بين ذراعى "مورفيو".

ـ خوانا! خوانا! خوانا!

يهزوننى من كتفى.

ـ انهضى بسرعة!

أفتح عينى. تحدثنى ذات اليدين الدافئتين.

ـ لماذا تنادينني بـ "خوانا"؟

ـ لأنه اسمك من الآن.

ـ ولكن، ألست أنتِ من كان يحمل اسم "خوانا"؟

ـ من قال لك هذا؟

ـ واحد ممن قلت لى إن اسمهم "كوسمى".

ـ أنا؟ "كوسمى"؟ من؟

ـ هيا، قولى لى ما اسمك؟

ـ تحققى من اسمى، وعندما تجدينه سأخبرك بأنه ليس اسمى. أنا لا أطلقه بإرادتى، فلن تضرينى بشىء. هيا، أسرعى فسوف

نرحل. لن يأتى صديق دون أنريكيه الإسبانى وأخشى آن يقوموا بزيارتنا قبل ذلك. علينا الذهاب بحثا عنه. هيا، اغسلى وجهك، ثم تتناولين طعامك ونرحل، هيا.

لكن، يا لطبيعة هؤلاء الناس الذين يقضون وقتهم فى التنظيف. كانوا يغسلون البيت أمس بهمة رغم نظافته وذلك بالأعشاب والماء الغزير ويريدون منى الآن أن ... كما لو كان هذا ضروريًا. أردت أن أقول، اتركونى وشأنى، ولكنها هنا، تغسل وجهى وصدرى بالماء وتغير لى ملابسى الهندية بأخرى أكثر نظافة.

نذهب إلى المطبخ ويجدوننى آكل فى صمت كاكاوًا وخبزًا خاصًا بهم يطلقون عليه "تورتياس" وأكلة لذيذة اسمها "بيبيان"[٨] نخرج إلى الشارع. ما هذا الكم من الناس؟ فحيث نسير نجد عمالا يدويين يجدون فى عملهم أو يغلقون أبواب محالهم. أيعقل أن تكون الخامسة مساء؟ هل أطلت النوم إلى هذه الدرجة؟ أعتقد أننى لم أتحرك منذ أن استطعت مصالحة النوم وحتى أيقظتنى ذات اليدين الدافئتين.

تمر عربة يجرها ستة بغال تحمل بعض الخاصة. ولكى ينبهوا الهنود إلى إفساح الطريق، يضربونهم بسوط من جانب لآخر دون الانتباه إلى أنهم يضربوننا وكأننا رؤوس أغنام. إنهم لا يضربون حتى أحصنتهم بهذه الطريقة. استطعت تفادى ضربة سوط بسبب تعثرى بهندية أخرى، امرأة عجوز تسير بصعوبة، أقوم بسندها حتى لا تقع بسبب ثقلى. يقع دثار كتفيها فأرى اسمًا مختومًا بالحديد المنصهر مثل رؤوس الأغنام.

نصل إلى أحد المرافئ. تدخل صاحبة اليدين الدافئتين فى مباحثة مع صاحب الفالوكة بينما أظل واقفة أسمع الضجيج وأرى كمًا من الناس بين ذهاب وإياب، يا لكم الناس ويا لكم الأصوات، فيبدو أن حتى البغال تتكلم وهذا مع وجود قلة منها، فالحمّالون الهنود يحملون على ظهورهم كل الأثقال. إننا نحن الهنود أكثر عددًا من البيض. ولا بد أنه ما زال هناك الكثيرون منهم أينما ذهبنا خلف القطاع الذى سنعبره.

يتوقف كل من صاحب المركب وذات اليدين الدافئتين عن النقاش وتأتى هى إلىَّ قائلة بصوت خافت: "لا تتحدثى بالإسبانية فهو يظنك هندية يا "كلير"، غطى نفسك جيدًا بالدثار فهؤلاء الرجال يحملون الأخبار إلى الوادى كله بأسرع من الريح. هيا، لنصعد". سيكون ثلاثتنا فقط على متن الفالوكة، إذا كان يمكن أن يطلق عليها هذا، لأن القناة الضيقة تقوم أحيانا بدور الطريق بحيث يسير عليها الناس ذهابًا وإيابًا مما يزيد من صخب الحياة الذى لا يتوقف فى هذه المدينة. لم يخف هذا دهشتى من أن المراكبى سيحملنا واقفتين وهو يدير المركب بدون أن ينحنى لتوجيه مجدافيه الطويلين. وبقدر ما كنا نبتعد كانت المياه تزداد عمقا، ومركبنا حجما، والرحلة طولا. اجتزنا الأحياء الموجودة عند عبور القطاع.

ينقسم العالم إلى نصفين: القديم والأراضى الجديدة. النور والظلام. الصمت والضجيج. البياض والسواد. الماء والأرض. الخير والشر. الرجال والنساء. الأوروبيون والأعراق الأخرى. هذه الأخيرة

لا يعرفها من لا يغادر أرضه، فعندها سيعتقد أن التعددية ممتدة وأن هناك إنجليز وفرنسيين وفلمنكيين وصينيين وبرتغاليين وقطالانيين. أتحدى أن يضع أحد ما ملابس هندية مثلى ثم يقول لى بعدها إلى أى عدد ينقسم الناس. سيجيبنى "إلى اثنين"، "البيض والهنود".

إن المدينة ذاتها، التى أتواجد بها، مقسمة إلى قسمين: قصور الإسبان الشاهقة والمنظمة والمصطفة على جانبى الطرق المرصوفة الواسعة، ومنازل الهنود الصغيرة والحقيرة غير المنظمة والمختبئة خلف الأولى. هناك بعض البيض الأغبياء الذين سيكون رأيهم أن هذا التقسيم كنا نتبعه دائما نتيجة عاداتنا. وهم لا يمزحون، إنه غباء محض. فقبل أن يأتوا لنا بالخراب، كانت شوارعنا مخططة بنظام تام. لقد رأيتها وأنا على المشنقة.

أقول إن العالم مقسم إلى نصفين حادين وعلى الرغم من حقيقة هذا، فإن الحقيقة تجعلنى أكذب. فإذا كان الزى الهندى يبدو مقبولا فهذا لسبب وحيد ولأمور ثلاثة. فعندما يرون أن سلوكى سلوك امرأة بيضاء وملابسى ملابس هندية يقولون "إنها مولّدة". أنا لا أكذب وإنما أجيب على العمليات الحسابية التى تعلّم الإسبان إجراءها فى هذه الأراضى. فثلاثة بالنسبة لهم تعنى اثنين دون أى شك من جانبهم. ولهذا الخطأ أقول "شوارعنا" وأقول "نحن" وأنا أسيرة رقم ثالث ما كان يجب أن يكون له وجود. إن العالم منقسم إلى نصفين...

نصل من قناة إلى قناة إلى نهر. نعبر بطول المرفأ الواسع الذى يفضى إلى طريق مرصوف كبيرة للغاية، مثل "تاكوبا"، ونهبط فى التالى وهو صغير وبلا حركة وبسلم مرتفع. بمجرد أن نصعد، أسمع مجدافى الأبكم يبتعدان.

قالت لى ذات اليدين الدافئتين: سينتظرنا هنا ولكن ليس عند الشط تحديداً. هكذا نضمن عودته.

عند بلوغنا أعلى السلم نصل إلى طريق صغير طينى ووعر خاص بمنازل هندية آيلة للسقوط، لم يتكلف أحد مشقة هدمها أو إعادة بنائها.

- من الأفضل السير حيث لا نصطدم بأحد حتى ولو امتلأت أقدامنا بالطين فلا بد أن الجميع قد علم بموت "دون أنريكيه" وفى الحقيقة أنا...

قطعت حديثها. وهناك، وحيث لا يتبادر إلى الذهن مقابلة إنسان ما، نسمع غناء رجال منشزين ومبتهجين. يتجه نحونا مجموعة من الجنود الإسبان المترجلين، ربما كانوا عائدين من وليمة أو احتفال ما، لأن رائحتهم تشى بأنهم سكارى، فما إن اقتربنا منهم حتى هاجمتنا عتاقة النبيذ.

ثبتت ذات اليدين الدافئتين عينيها فى الأرض. أما أنا فليس لدى سبب نعم وإنما أسباب للنظر إليهم. فهم سكارى نعم، ولكن ليس إلى درجة الترنح أو السقوط. وهم مسلحون بسيوف وليس بأسلحة نارية. يبدو أنهم قد ضلوا الطريق إلى المرفأ الرئيسى ولن يجدوا فى هذا من يحملهم إلى المكسيك؛ سيجدون فقط مركب

الأبكم مبتعدًا بذكاء بعض الأمتار عن البر فى انتظارنا متظاهرًا بالتجديف بعيدًا عن مخاطر المرسى.

- إيه! إيه!

- انظروا!!

- آه! يا للجمال!

يتوقفون لتأملى. تجذبنى ذات اليدين الدافئتين من إحدى ذراعى وتسرع بالسير. وما إن نخطو خطوة واحدة حتى يحيطوا بنا. يجذبنى أحدهم من ذراعى الأخرى:

يقولون لذات اليدين الدافئتين: اجرى أنت يا عجوز، إذا أردت.

- لا أريد. أطلقوها. ألا تعلمون لمن تتبع. لو أننى فى مكانكم لفضلت إطلاقها.

قال وهو يدفعها فى صدرها بيده: أطلقها؟ ويسأل آخر أكثر حذرًا:

- لمن أنتما تابعتان؟

أجبت: للكونت أوركيثا.

يصرخ أكثرهم سكرًا وهو يمسك بذراعى ويجذبنى ليعانقنى: هذا قد مات! اذهبى أيتها العجوز، إنك تثيرين اشمئزازنا.

كنت أسيرة تمامًا لذراعيه. ولكن، وبحركة منى مدعية عناقه، أقبض على سيفه بيدى اليسرى وأرفعها لكى أقبض على جانبه بيدى اليمنى وأصيح:

ـ أى حركة، سأقتله.

يصمت الجنود السكارى صمت الموت. يظلون، وكأنهم جسد واحد متراص، على حالهم، الذى كانوا يتابعون به ما يفعله من جَعَله أسيرًا لى، وكيف كان يعبث التعيس بيده بجسدى الأعزل. إلا أننى أنا الآن من يفعل به.

جذبته معى لاستخدامه كدرع، لست فى حاجة إلى إجباره فإن حد السيف فى ظهره يفزعه.

ـ الكل فى جانب وإلا قتلته. أنتِ ـ أقول لذات اليدين الدافئتين ـ تقدمى.

تمسكنى من تنورتى وتوجهنى من ظهرى عبر زقاق لا أعرفه. وعندما أصبح فى مأمن، أطلق حد السيف من جنبه وبيدى الطليقة أُبعد أسيرى عنى وأقوم بقفزة إلى الوراء وأقبض على السيف بيدى اليمنى وأقول، بينما أسمع ذات اليدين الدافئتين تجرى:

ـ الآن يا فرسان، اتركونا نذهب إذا لم ترغبوا فى مشكلات أخرى. نحن لا نعمل مع "أوركيثا" لأننا لا نحب التعامل مع أموات. نحن الاثنتين نعمل فى خدمة السيد الأسقف. اشتكوا له من تصرفنا إن شئتم...

أسير ثلاث خطوات بظهرى وأضع السلاح على الأرض وعندما نصبح بعيدًا عن أنظارهم، نسرع الخطى. وفى وقت قصير، وبعد أربعمائة متر، نصل فى منتصف المساء إلى بيت عائلة "أوروثكو".

كان البيت خاليًا. عند الباب، يصف لنا خادم بإيماءات آين هم جميعًا. تصل أصوات الضجيج والموسيقى حتى هنا. نسير إلى أن نصل إلى بيت الماركيزة. الأبواب مفتوحة على مصاريعها. فى الطريق بالخارج عدد لا يحصى من العربات والبغال والسائسين. تبرز من حوائط البيت وعلى جانب من العربات الأخيرة، باقات من الزهور والسعف متجهة نحو الكنيسة. نستطيع تخطى حاجز الخدم مشيرتين، مرة تلو الأخرى، إلى ضرورة سرعة العثور على "دون بيدرو دى أوثيخو" وبأنه يعلم بالفعل أننا نأتى بحثًا عنه من طرف صديق لا يمكن أن نذكر اسمه كتمانًا للسر. يضع المدعوون ملابس فاخرة فمن لا يضع حذاء برقبة من الحرير بأزرار، يضعه من القطيفة، وتفيض الملابس بالتطريز وبالأحجار وبالمجوهرات على الرؤوس والأذرع وفى الرقاب التى لا تغطيها الياقات والدانتيلا. لا يتوقف الموسيقيون عن العزف. وفوق الموائد المعدة للطعام، فى الخلفية، بعض الندماء. بينهم "بيدرو دى أوثيخو". يرانا فيأتى إلينا:

- ليلة سعيدة. لقد تسلمت رسالة الكونت، لم أذهب اليوم إلى هناك لوجود احتفال.

تبدأ ذات اليدين الدافئتين بالكلام: كما تعلمون سيادتكم، فإن مسألة ترك البيت بلا أى إسبانى تعتبر مخاطرة كبرى، فقد يأتون للاستيلاء على المزرعة...

- لا أظن ذلك، إن نائب الملك يعلم بقدوم ابن أخيه...

- لقد قال الكونت إن...

ـ حسنًا، إنه ليحزننى أن يشك صديقى المخلص فى أننى قد أسقط ولائى، فلنذهب حالاً الآن.

يبعث فى طلب ركوبته ويستأذن من الماركيزة وعائلة "أوروثكو" ومن أصدقاء آخرين، بينما ننتظر نحن الاثنتين بالخارج. يخرج ومعه خادمان إسبانيان مسلحان وخادمان هنديان. يرافقوننا إلى المرفأ ـ ليس هناك أى أثر لمجموعة السكارى ـ وهناك ننادى المركب التى سيستقلها ثلاثتنا، أما الباقون فسيقطعون الفرسخين برًا. يعطى "بيدرو دى أوثيخو" بعض التعليمات لخدمه فيطلب منهم أولا "المطواة، أعطونى إياها فليس من اللائق اصطحابهما بدون سلاح ولو أنه كان من المناسب أن يأتى معنا اثنان منكم للدفاع عنا عند الضرورة، ولكن، بما أن المركب لا تسع سوى أربعة أشخاص فعلى الأقل أحمل مطواة حتى إذا ما وقع شىء". يودعهم بحركة منه ويصعد فى ثانية. ويقول وهو ينظر إلى: "إذا ما وقع الآن أمر ما، فإن وجود المطواة يتساوى مع عدم وجودها لأننى لا أعرف من أين تُقبض ولا كيف يُمسَك بها ولا من أين تُجذب للدفاع عنا بها، فإذا كان الغرض منها هو الجرح فقط، فأنا واثق من أننى سأُجرح قبل أن أجْرَح أحداً حتى لو كان مستسلمًا ويتوسل إلىّ". كنا فى عجلة من أمرنا حتى هذه اللحظة معه وعنه وأموره إلى درجة أنه لم يكن لديه الوقت لرؤيتى ولا أنا لرؤيته. ولكن الآن، وقد بدأت رحلة العودة البطيئة، فإننا قد ألقينا بالاً. فهو ليس شابًا تمامًا ولكنه ليس عجوزًا، وهو وسيم المظهر وحسن الطلعة وجميل المحيا.

يسأل: وهذه الصبية؟

تجيب ذات اليدين الدافئتين: هل تتذكر الفارس الفرنسى؟

ـ نعم... إلى حد ما.

تهمس له ذات اليدين الدافئتين بشىء فى أذنه.

يبتسم لى "بيدرو دى أوثيخو" ابتسامة ود مرحة، ودون أن يذكر ولا يضيف ولا يسأل شيئا خشية منه ومن ذات اليدين الدافئتين من أن يقوم المراكبى بنقل ما يسمعه خلال الرحلة لأحد ما، يبدأ فى رواية الأحداث المرحة التى شغلته طوال اليوم.

الحفل والعرض

- كما تعلمان، ورغم أنك يا صغيرتى الشابة ربما لا تعلمين، أن الماركيزة قد وضعت ابنًا يمثل الجيل الثانى لعائلة الماركيز الذى ولد بإسبانيا الجديدة. ولكثرة ثرواتهم وشدة كرمهم، أقاموا حفلاً عظيمًا احتفالاً بتعميد الابن البكر الذكر الذى جاء بعد أكثر من ثلاث بنات، عقابًا لا يعلم سببه إلا الله، وهو ما انتهى بمولد الذكر.

"أروى لكما أولاً أنه كان يجب تغيير اليوم المُنتظر للحفل لأن الماركيزة لم تكن بصحة جيدة رغم أن هناك من يقول إن الماركيزة "مرضت" بسبب سقطات الماركيز مع الشابة التى نعرفها جميعًا ما جعلها تشعر بالغيرة ويجف لبن الرضاعة فى ثدييها، وهو ما أدى إلى شعوره بذنب عذابها الذى لم يكن له يد فيه وإنما هى مشاعر الغيرة، وأنى لهم أن يجدوا فى إسبانيا الجديدة مرضعة بيضاء، إنه أمر شبه مستحيل كما لا توجد إسبانية تسمح بأن يرضع أطفالها لبن هندية، ما جعلها تصف لنفسها الراحة وتناول اللوز (وصفت لها الخادمات الهنديات الكاكاو بكثرة وهو علاج تعودن عليه، على

الرغم مما يقال من أنه لا يجب تناول الكاكاو بكثرة لأنه يؤثر على العقل ـ وكان يجب سؤال الماركيزة عما إذا كانت قد عانت من ذلك، وقد أطاعتهن بكل سلاسة فقد كانت يائسة من مسألة اللبن الخاص برضاعة ابنها الذكر إلى حد أنها كانت تهتم بأى نصيحة وقد يكون الكاكاو هو الذى أعاده، لعلنا نعرف)، والآن يتوفر الخير الكثير ويقترب الطفل من أن يكون مربع القامة وقد أكون مبالغًا فى قولى هذا، لأننى إذا ما آثرت الحقيقة لقلت إن الطفل فى حالة هزال. لكنه بخير، فلا تقلقا. لم أره عن كثب... وهكذا فقد رُتب الاحتفال لليوم. وقد أقاموا ممرًا طويلاً من السعف يبدأ من نوافذ منزل الماركيز حتى كنيسة سان خوان...".

تقاطعه ذات اليدين الدافئتين: لقد رأيناه.

ـ لكن، دعانى أرو لكما قصته، فهو سبب ما نحن فيه، وطالما أن الليل لم يسدل ستاره بعد ولا نستطيع الرؤية تقريبًا، لا يصبح أمامنا سوى الكلمات. كان الممر المصنوع من الزهور ومن أقواس النصر به باب عليه رجلان مسلحان يمنعان المرور. ولما كان يومًا من أيام الصيف (وحتى لو لم يكن كذلك، كانا سيضعان نفس الملابس فلا اختلاف هنا للطقس مع فصول السنة)، كانا يضعان ملابس طويلة من الحرير وفوقها معطف قصير أسود ويحملان فى أيديهما سيفيهما، مسلحين حتى إذا ما جاء من يأتون بالطفل فإنهما سوف ينازلانهم ويغلقان الطريق عليهم، حتى وصل العراب فتظاهرا بانتصاره عليهما ممهدًا المرور ـ على الرغم من أنه يجب علىَّ هنا

القول بأن من أدعوه الونسيتيه، وأنتِ تعلمين من هو، وأنتِ لا، لا يهم، حسنًا، أقول حسنًا ولكن ليس للسلاح ـ وهكذا، فإن من كانا فى وضع الدفاع لم يبديا بحق أنهما يتعاركان معه، كما أظهرا الاستياء من تغلب واحد على اثنين، وبهذه البلادة...

"وصل الموكب الاحتفالى إلى الكنيسة حيث كانت جوقة الأطفال الهنود تغنى المرثية التى وضعت خصيصًا للاحتفال، ولأننى لم أكن الشاعر الذى تم اختياره لكتابتها فلا داعى لتكرارها هنا. على العكس أقول، وللعلم، إن الاحتفال تم بالفعل وأنه، عندما وُجِد الجميع فى الكنيسة، انطلق طفل صغير، يضع ملابس ملاك، فى الغناء. كان يتزين بملابس ملاك من الحرير القرمزى المزركش بالذهب والفضة وستة أجنحة من الريش من نفس لون الملابس، يخرج اثنان منها من كتفيه ويرتفعان عن رأسه وآخران يكسوان جزءًا من جسمه والباقيان على جانبيه. كان الطفل يمسك فى يده شمعة بيضاء مشتعلة على شكل بلطة بداخلها زينة تبدو على شكل وردة ولكنها لم تكن سوى مجمع للشمع لوقاية الثوب.

"كان وجه الطفل جميلاً، وأجمل منه صوته الحسن، كان يشدو، بمصاحبة بوق ومزمار، الأبيات التى سأذكرها. أنشد منفردًا الأبيات الثلاثة الأولى ثم الباقى بمصاحبة الجوقة، وكلما كانت تأتى فى بيت الشعر كلمة "ملاك" و "فضيلة" و"حكمة" و"شفقة"، فإنها تغنى أمامنا بطلاوة مختلفة وبأصوات جميلة كلها بحيث إنه، بانتهاء الحفل الموسيقى، لم تكن هناك عين تخلو من دمع التأثر. تقول الأبيات:

"(يغنى أولاً الملاك الصغير منفردًا:)

تمطر السماء بالخيرات

لرؤية المسيحى الجديد

"(يقوم أربعة من الصبية الطوال كالبالغين تقريبًا، وأقول تقريبًا لأن أصواتهم كانت تشى بأنهم ما زالوا صغارًا، يتنكرون فى زى ملائكة بملابس من الحرير والذهب والريش فى أبهى صورة، بالانضمام إلى غنائه):

يصل أربعة ملائكة

تغنى أصواتهم بوضوح شديد:

"الهناء، الهناء للمسيحى!"

"(ثم يقومون بالحركة التى تأتى بالبيت الشعرى):

تمتد الأيدى، مبتسمة،

لتحيط بالمسيحى الصالح،

تهدهده بغناء عذب.

تهبط الشفقة فى الوسط

"(يدخل مسرعًا شبه فار، إلى أن يسقط فى الدائرة، شخص يبدو سماويًا من مظهره وزينته وصوته، ويغنى منفردًا، إنها المرأة الوحيدة البالغة فى الجوقة):

فليستيقظ المسيحى!

فالهناء فى أن يعيش يقظًا،

ومحاربًا الخطيئة دومًا،

لينام الوثنى هادئًا

"(هنا تنضم الأصوات كلها، الشاروبيم والملائكة والشفقة لتغنى فى إيقاع واحد):

"فليستيقظ المسيحى!"

"لقد فاتكم رؤية هذا، أصواتهم وزينتهم والعرض المقدم برشاقة كبيرة، والملاحة التى كانت تنطلق بها أبياتى من أفواه الهنود وهم ينشدون فى مدح المسيحية! ثم قال، وهو يبدل طبقة صوته بأخرى خفيضة ومتوارية: ويستمر الحفل حتى يسيطر الليل، تصاحبه الموسيقى الراقية للأصوات والآلات وبمشاعل وأعيرة نارية ومهارات أخرى من الألعاب النارية وقرع الأجراس والصفارات والمزامير والأبواق...".

صمَتَ. أظنه قد تعب من كثرة الكلام، أو أنه يعلم الطريق أفضل منى وقد انتبه إلى أننا على وشك الوصول. قام الصامت الذى حملنا وأتى بنا، بتثبيت مركبه، نزلت منها ذات اليدين الدافئتين (هل تُرانى سأعرف يوما اسم من أنقذت حياتى؟) يمر الشاعر وأبقى وحدى لأننى كنت أول من صعد إلى المركب. أتقدم، أنظر إلى الصامت ليناولنى يده، يحدثنى بلغته. أرفع رأسى نحو ذات

اليدين الدافئتين لتجيبه. أنزل يدى وأرجع للوراء خطوة. أخاف من نظرته النافذة، أتظاهر بالالتفات بشكل ملحوظ نحو شىء يحدث بجوارى على بعد. يعاود محادثتى وأدعى الصمم وأننى لا أفهم منه شيئا البتة. لا تسعفنى ذات اليدين الدافئتين، لا أدرى ماذا أقول له. أرجع إلى الوراء خطوة أخرى متظاهرة بالانشغال بما يدور عن يمينى وخلفى بقليل والله أعلم بأن الظلام يحول دون رؤية شىء. وبتقهقرى إلى الوراء أطأ مطواة الشاعر التى رأيتها فى لحظة ما من الرحلة فى أرضية المركب. يا لغبائى. تتنبه ذات اليدين الدافئتين إلى أن الأبكم يحدثنى فتجيبه بلغته. لا ينتبه أحد إلى أننى جُرحت. أنحنى لأجد النصل فى لحمى.

أسحب قدمى وبها الجرح. أرفعها. إنه يؤلمنى بشدة.

لا أنزف.

لا أستطيع أن أطأ بقدمى الأرض.

لا أنزف.

لا أستطيع أن أخبرهم أننى أتألم. فسيعرفون جميعًا بعدم وجود دم فى عروقى، لكننى لا أتمكن من أن أستند على قدمى. كيف أسير للخروج من هنا؟

لا، لا أنزف. تهز مياه القناة المركب. ينظر الشاعر إلىّ. تنظر إلىّ أيضا ذات اليدين الدافئتين. أكتم الألم، أبذل جهدًا، أخطو خطوتين. إننى بالخارج. أستند على الشاعر. أهمس له فى أذنه: "لقد جُرحت، وطأت السكين".

لا أنزف.

إلى ماذا حولتنى المياه التى تبحر فى عروقى؟

الحياة المنزلية

لم يهدينى الجرح الذى بقدمى إلى اكتشاف الفراغ الذى بعروقى فحسب، وإنما أدى إلى وقف تام لتدفق الصوت الذى كان يحاكينى كلما توترت والذى كان سينتهى بإصابتى بالجنون.

حملنى الشاعر إلى البيت. حممتنى ذات اليدين الدافئتين بعناية (مرة أخرى بهذا الهوس الهندى) وساعدتنى لعدة أيام فى ألا يحاول أحد إخضاعى لروتين النساء غير المؤهلة له. فلم أولد لغسل الملابس أو للتطريز أو لأعمال المطبخ أو للمحافظة على النظافة أو ما يقمن به جميعًا هنا وهو إعداد النيشتامال. بل وأكثر من هذا، لم أولد لأى عمل روتينى لرجل كان أم لامرأة. لا أعرف لم ولدت، لم يرغب أحد فى ذلك، ولا أنا طلبته، لم أشعر بالمرة بالتعلق بأى عمل، مهما كان نوعه إذا كان من أجل البقاء فى نفس المكان أو التعرض للتكرار. وهذا لا يعنى أننى أهوى الكدر، على العكس. أهوى الاستمتاع ولا تستهوينى فكرة موتى.

ولكن، يبدو أنه لا يوجد هنا ما يمكن أن أقوم به غير الروتين النسائى، وكان خلاصى المؤقت فى التعلق بحديث شاعرى. فعندما

يسمح هو بذلك، أكون بجانبه، أراه وهو يعمل أو أستمع إليه. لا يمكننى مشاركته زياراته ولا حياته فى قصر نائب الملك. أولا، لكونى هندية ولأن قدمى ما زالت لا تسمح لى بالانطلاق فى السير. إنه جرح رهيب، كان على وشك أن يجعلنى بلا أصابع، وهو لم يبرأ بعد.

لقد أنقذتُ من حبل المشنقة ولكن هذه الحياة الدافئة، لولاه، لكنت قد دُفعت إلى الموت.

لا أريد الوقوع مرة أخرى فى مبررات متاهية لكيفية الخروج من هنا أو ما العمل. أولاً، يجب البحث عن شفاء لقدمى. فبشفائها أستطيع الوثب. لن أجعل أحدًا يرانى مرة أخرى فى هذه المدينة التى أصبحت أمقتها، حتى إذا ما اقتضى الأمر موتى فى سبيل مغادرتها، فأهلاً بالموت. لقد كان "كوسمى" على حق بعض الشىء، فالبقاء فيها كالبقاء على متن مركب فى عرض البحر. إنها مكان رذيلتى. إنها سجنى. أرى "كوسمى" يمر مسرعًا، يجتهد فى الوفاء بواجباته. أما ذات اليدين الدافئتين (يا للشيطان، لم أستقص اسمها، فالكل يعمل على إخفائه عنى) نعم أراها فهى هنا دائما ولكنها تفر منى وفقدت احترامها لى. فرؤيتها لى بلباس امرأة هندية يجعلها تعتقد أننى كائن بلا أية أهمية. فإذا ما عدت إلى لباس الرجل الأبيض لكلمتنى باحترام ولأصبحت خادمتى المخلصة ولضحت بحياتها من أجلى. ويستحيل الظن بأنها بطابعها هذا تكون قادرة على إدخال السرور إلى نفسى فى الوضع الذى أنا فيه.

وللتوقف عن الندم أجد الشاعر. نعمل كلانا معًا، أقول نعمل لمجرد القول، على عدم فعل شيء. وأشك أنه بشفاء قدمى نفعل شيئا، فهو لا يفعل أى شيء. فهو ليس ماهرًا فى أى شيء يمكن عمله. فليس بالفارس الجيد ويسيء استخدام السيف ولا يستطيع الخروج للقنص ويقول إنه عندما يصوب لا يصيب هدفه بالمرة، "إننى لا أصيب ولا حتى فى ألعاب الحظ". يزدرى ألعاب القمار وعندما سألته عن ألعاب الورق قال إنه لا يدفع لأحد مقابل استخدام أوراق رسمها بعض القوادين.

إنه يمضى أيامًا كثيرة أمام محبرته الضخمة، "يكتب" أبياته أو يتجول عبر القصر، ذهابًا وإيابًا بلا هدى مثل كلب بلا صاحب. ليتنى كنت صاحبه! وهو عند الكتابة يضع على فخذيه قطعة الحجر الضخمة التى على المنضدة والتى بحجم كفين معًا وبسطح أملس من جهة والأخرى مقوسة وتبدو وكأنها ذات سطحين فقط من شدة انبساطها، وعلى أحد سطحيها طبقة ملساء من الشمع يقول إنه يكتب أبياته عليها. أطللت لأرى، ولا أرى شيئا: شمع ووسخ فقط. ولكنه يقول إنه ينقلها من هنا وبأن الحجر يكلمه وبأن كل ما يفعله هو إضافة مقطع أو اثنين، إزالة علامات ترقيم، تغيير نبرات. هوس!

كان عندما يخرج ليزور قصر نائب الملك أو يذهب خلف القضاة أو القساوسة، يعود غاضبًا. وبسؤاله، عندما يعترف لى بأن شيئا قد أغضبه، و"لماذا تذهب إذن؟"، يجيبنى: "إننا جميعًا فى حاجة إلى

بعضنا بعضًا على الرغم من أن أساس هذا إغضابنا". كان يتمتع بملاحة فيما يروى لى من حكايات سمعها أو رآها، مما دفعنى إلى سؤاله لماذا وهو كاتب لا يكتبها ليستمتع بقراءتها كثيرون، لكنه أجابنى: "أنا أكتب هذا؟ إننى شاعر، ولا أجد داع لاستهلاك الورق فى شائعات كاذبة والقيل والقال وأن الحكايات لا تخبرنا عن الروح التى تسكن الطبيعة، وما هى لغة النجوم وما هو منطق وجودنا ماديًا كأرواح هائمة. فإذا لم أكن على ثقة بتمتعى بالمهارة فى ذلك، فإننى أعلم أننى أكتب من أجل الحديث مع الحجر... إن أبياتى تمثل حوارى معه" . وعندما ألححت عليه، أجابنى: "نعم، إن كتابة الحكايات تفيد، لا أنكر هذا، ولكنها تفيد بشكل مفرط، إنها طريقة للغزو والانتصار ولا سبب لدى لغزو الناس. لا حاجة لى بهذا، الجميع يحبوننى، ألم تلاحظى هذا؟ عندما أكتب أبحث عن شىء آخر، عن الكلام مع الجماد ومع الرمل ومع النجوم...".

أنا لا أتمتع بملاحته. ليس فيما يتعلق بما يرويه من حكايات وإنما لكونى لست هذا الرجل الرائع المفعم بالفتنة، بل امرأة هندية، وعليه فإنها تؤتى بلا مقابل، لمن يشاء وفى أى وقت يحلو له. ولكن يمكننى أن أعيد على نفسى بعض أجزاء من الحكايات التى رواها لى "بيدرو دى أوثيخو" والتى سيودعها للأبد طى النسيان لاعتبار ثمن كتابتها مبتذلاً:

"... كان نائب الملك قد فكر فى إعلان حظر استخدام عربات الكارو فى المكسيك التى يجرها أكثر من أربعة بغال. وقيل فى

القصر إن كل ما يميز الهندى عن الإسبانى مباح وأنه فى المقابل يجب عدم السماح بفضيحة أن تضع الهنديات القفازات والملابس الإسبانية، وقد أجاب نائب الملك بأن الحظر يخص استخدام عربات الكارو التى يجرها أكثر من أربعة بغال فى الطرق المرصوفة وفى شوارع المدينة إلا الخاصة بنائب الملك والقاضى وأصحاب المناصب المهمة فى القصر أو من يمتلك مخازن للمؤن، وقد لاقت هذه الفكرة استحسانًا من جانب أفراد البلاط جميعًا. وقد يتم بالفعل اتخاذ قرار بهذا الشأن، خاصة وأن بالقصر من ظهر فى عينيه الجشع وحتى فى جلده ذاته وهو يتخيل ثمن ما سيبيع من مؤن...". ويقول "بيدرو دى أوثيخو" إن ما يثير الضحك هو أن عادات الافتخار لدى الناس هنا، والتى تؤدى بهم إلى إسراف يدعو إلى السخرية، لا يتعلق فقط بعربات الكارو: فالأزياء هنا ليس لها مثيل فى أى بلد أوروبى، فهى من جهة مصنوعة من خامات غاية فى الجودة (فالقطيفة تستخدم بإسراف فى صنع الأثواب السابغة والسترات والسراويل والأحذية والقبعات أما الجوارب فهى من الحرير وتبطن قطع الملابس بالستان وعندما تصنع الصديرية من الستان فإنها تبطن بالتافتاه، ومن القماش الدمشقى تصنع المعاطف والأثواب الطويلة والقمصان العادية والقمصان المثيرة؛ وصديريات هولاندية ودمشقية وقطنية)، يعود جانب من ذلك إلى أن لدى كل إسبانى عدة ملابس، ولأن أشكال الملابس أصبحت أيضًا مبالغًا فيها بشكل غريب يثير الضحك، فالياقات ضخمة والأكمام تزحف على الأرض ومن الشائع وجود أربعة أكمام بالصديرية ولن يقول أحد هنا لأنها لمن لديه أربع أذرع...

ـ أليست صدفة يا "بيدرو" أن الناس فى إسبانيا يلبسون بنفس الطريقة المزهوة وأن الشىء الوحيد المختلف هو أنت لوجودك هنا بين أناس فى غاية الثراء؟

ـ هل هى المساواة؟ إنها كالمساواة بين حبة أرز وحبة فاصوليا جافة واللتين حتى لو أكلتا معًا فلا تشابه بينهما بالمرة، لا نيئتين ولا ناضجتين، ولا يطلق عليهما هباءً طبق "المسلمون والمسيحيون"، وفيما يتعلق بالمساواة بين الأشخاص، فإن من يعود إلى الجزيرة الأيبيرية يُطلق عليه إسبانى عائد ولا يمكنه التخلص من التسمية لأنه بعودته إلى هناك يعامل معاملة مختلفة لأنه ليس إسبانيًا من إسبانيا وإنما إسبانيًا قادمًا من هذه الأراضى. إن السبب الذى يمكن أن أرجعه لذلك هو أن هناك أشياء نعيشها لا يمكن أن ننساها وأذكر منها واحدًا وهو الخاص بـ "التسلط" اليومى والمتمثل فى أنه لو أن إسبانيًا أو إسبانية فى أراضى المهجر رأى هنديًا أو اثنين مارين من أمام بيته وعاجزين عن تبرير عدم خضوعهما لخدمة أحد، وغير مكلفين أو لا يتحدثان الإسبانية، فبإمكانه حتمًا إدخالهما منزله ليقوما بكنس الفناء وتنظيف البيت والمطية والإصطبلات وإخراج القمامة، كل هذا دون دفع أوتشابو[٩] واحدًا ولا سؤاله عن رغبته أو استطاعته فعل هذا... إذا ما عدت إلى المباهاة، فمتى كان فى إسبانيا، حيث الحصول على لقمة العيش أمر صعب، أقول، هناك حيث يكون الذهب فقط فى الأحلام وحيث كثرة العمل، متى لم نجد الجميع، فى أى يوم عيد كان، يرهنون بيوتهم وممتلكاتهم من أجل إنفاق الأموال ببذخ فى مفاخر زائلة

وأطعمة وملابس فاخرة من أجل أن يقوم الأبناء أو اليتامى بغناء المدائح، ووضع الأقنعة والزينات والأنوار والشموع، كما يفعل الجميع الآن، مما يؤدى إلى ثراء قلة من التجار الذين يتحولون إلى ملاك للمرهونات إذا ما لم يستطع الراهنون دفع ما عليهم؟ كل هذا من أجل الحصول على الآثار المقدسة التى ترسلها روما. إنهم يتهاوون برءوسهم من أجل شوكة الإكليل الذى وضع للمسيح فى آلامه ومن أجل قطعة من عظام رأس القديسة آنا المباركة أم السيدة القديسة وعظمة أخرى صغيرة ليوسف زوجها وقطعتين من خشب منزل سيدتنا القديسة، لوريتو... إنها أمور غير منطقية، ولأننى لم أفقد سلامة عقلى ولا الإرادة، وافقت على كتابة الأبيات التى كُلفت بها لأنهم سيدفعون لى مقابلها كمًا من البيزوس التى لم أكن أحلم بجمعها... وأريد أن أشترى بهذه الأموال تنصيبى نائبًا لحاكم أعظم محكمة ملكية بالمدينة؛ والأمر الوحيد الذى لا أعرفه حتى الآن هو هل أدفع لهم بالبيزوس الذهبية أم المرابطية أم الجواهر أم المتاع الثمين...

ـ أى نائب؟

ـ إن منصب النائب أكثر من جيد بالنسبة لى، لا يغرينى المقعد المصنوع من القطيفة السوداء. كل ما أريده هو المال بدون تعقيدات كبيرة لأكتب ما يعن لى دون أن أظهره لأحد حتى لا أقع فى مأزق، لا مع البلاط ولا مع محكمة التفتيش،... أكتب ما يخصنى وأحتفظ به لنفسى...

أقنعته بأنه ليس من المناسب دفع المال من أجل الحصول على لقب نائب وبأن يحتفظ بماله وأن يشترى وقته بشكل كامل بما يدفع له مقابل أبياته. ثم ندمت على قيامى بإقناعه، فما الذى يضيرنى إذا ما صار نائبًا؟ لعله أدرى بمصلحته أفضل منى وهو أدرى منى بهذه الأراضى.

كنت سأسلّى نفسى فى محبسى باسترجاع مقاطع أكثر مما كان يرويه لى "بيدرو دى أوثيخو"، لكن ها قد تعافت قدمى وعلىّ الخروج اليوم سيرًا بعكازين وفرتهما لى ذات اليدين الدافئتين والتى لم تبدِ تمسكها بما نبه إليه الكونت والخاص بمعاملتى كفارس إذا ما أفلتُّ من المشنقة. لكننى لا أشكو منها، إنها تعاملنى تبعًا لمظهرى، فهى تتمنى مثلى أن أستعيد زيّى كرجل أبيض، بحيث إنها إذا ما رأتنى أضعه فسوف تعاود مخاطبتى باحترام، ستعاود إنقاذ حياتى ولو بالمخاطرة بحياتها ثم تقوم بعد ذلك بإلباسى ثياب امرأة لتعاود الحديث معى بصيغة المخاطب بدون أى توقير. إننى لا أبحث عن تفسير ما لتصرفها. تكفينى معرفة أن هذا هو طبعها.

أخرج من قصر الكونت "أوركيثا" دون إخطار أحد، فلا أحد اشترانى ولا لأحد أنتمى، وأعود للفزع من الضجيج المزعج لهذه الطرق. أرى سيدة محمولة فوق مقعد على أكتاف أربعة هنود. لا وسيلة لمعرفة هويتها فهى مغطاة بعباءة وتضع الخمار على وجهها. لهذا لا يحزننى كونى امرأة فقد لا يرانى أحد أنا الأخرى.

أترك ورائى الشارع حيث مصاطب العمال اليدويين. يزداد للغاية اهتمام الإسبان بشخصهم وبمركباتهم وقصورهم وصالوناتهم ويقل

جداً بالمدينة أو ربما لا يحكمون عليها من خلالهم، لذلك تعم القذارة كل الأنحاء كما أن الماء الجارى هنا وهناك والخاص بالسواقى فى حال يرثى له، ويملأ الطين الشوارع المحطمة مواسيرها أو المنزوع رصفها أو التى لم ترصف بالمرة والتى تدعو للأسى.

لا أعرف لماذا، ولكننى أتهيأ لرؤية أوساخ. أمر لتوى بكوم مكدس منها يقبّح الشارع. إنه ليس إلا كومة من قذارة وأنا هناك أنظر إليها، شاردة، ربما دون التفكير فى شىء، ثم أسمع ضربات متتالية قريبة جداً منى. أرفع بصرى وأدير رأسى جهتها. أشاهد رجلاً ليس بشاب، يضع ملابس داكنة ويحمل عصًا لا تتجاوز ذقنه ويسمك حربة على شكل رمح وعلى رأسه خوذة من معدن، يقترب منى. أكثر.

يستجوبنى: لملمى قذارتك. إنى آمرك.

أجيبه: إنها ليست قذارتى، لو كانت لى لجمعتها دون أن يُطلب منى، كما لا حق لك فى أن تأمرنى.

ـ لى حق بالطبع. يا محتسب، إما تطيع أو أودعها السجن...

أقاوم مؤكدة أننى لا أمزح.

أعاد الكرة: اقبضوا عليها.

جذب المشهد بعض محبى الاستطلاع. يبرز منهم صوت وكأنما يتباهى بالأمر، يقول:

ـ اقبضوا عليها.

لا أستطيع تمييز من يتكلم فالجسد الراسخ للمحتسب يحول دون ذلك. من أين يأتى الصوت، يقترب منا خادم هندى يجمع بيديه القاذورات ويحملها إلى الجرن الواقع على بعد خطوات خلفنا.

يضيف نفس الصوت: لقد حُل الأمر.

يعاود المحتسب طريقه كما لو كان كل ما يريده بالفعل هو عدم وجود مشكلات بالمرة، وهو يهز كتفيه وكأنه يريد أن يقول لنا ضمنيًا "أنتم وشأنكم!" ما يجعلنى أضحك. ثم يبدأ محبو الاستطلاع فى التفرق بينما يمسك أحدهم بذراعى بشدة ويقول لى:

ـ أيتها الشُّجاعة بسيفى.

إنه الجندى الذى كان ثملاً بعض الشىء يوم أن جُرحت قدمى والذى هددته لأنه أراد اغتصابى، وهو نفس الصوت الذى أعفانى من جمع قاذورات غيرى.

ـ ألست مع الأسقف، لقد ذهبت للبحث عنك. الآن سوف أحملك معى بالفعل ولذلك أعفيتك من الإمساك بالقاذورات فلا تعجبنى النساء اللاتى تمتلئ أيديهن بالخراء. سأستمتع بك كما أشاء واعلمى أنك لن تستطيعى سلب سيفى. فأنا لست مخمورًا هذه المرة...

ـ إذا كنت غير مخمور وتتصرف وحواسك الخمس يقظة، أظن أنك لن تظهر لى أنك أيضا جبان. سأبارزك بالسيف. فإذا هزمتنى

سأكون لك عدد المرات التى تريدها على ألا تزيد عن ست. وإذا ما فزت أنا، تتركنى وشأنى.

لن يدرك من يرانا أن بيننا مبارزة حتى الموت لأنه كان ما زال يمسك بذراعى وأنا قريبة منه بدرجة أكبر مما تشير إليه حركته. نبدو صديقين، إن لم يكن حبيبين. أضيف:

- وتكون جبانًا إذا لم تقبل بأنك رجل وجندى وقوى وأنا لست إلا هندية وامرأة.

- لست هندية، لا تخدعينى. ولكن، أعلم، نعم، إنك امرأة، كيف سأقبل مبارزتك؟

- اقبلها إن لم تكن تخافنى... هل سيفك خشبى؟

- أنَّى لى أن أخافك!

قام بإبعادى عنه بحركة وألقى إلىّ بسيف. صاح فى أصدقائه الذين يراقبون المشهد على بعد خطوات، طالبًا آخر:

- ستبارزنى حتى الموت! أعيرونى سيفًا جيدًا فقد أعطيتها سيفى!

- كيف لك أن تعارك هندية!

أرفع السيف بعد أن شمرت وزرتى القطنية. يشكل الجنود دائرة حولى.

أرفع صوتى قائلة لهم: ألن تدعوه يبارز؟ هل أنتم مربياته أم ماذا؟ مرضعاته؟ لا يليق بكم زى الجنود الذى تضعونه!

تقف عربة على حافة الدائرة التى تشكلت. يبدو أننى الوحيدة التى تتنبه لها، فالأصدقاء لا يعيرون اهتمامهم سوى لتبجحى، ثم يقومون بإعطاء الجندى سيفًا. إننى أعرف كيفية مبارزة الإسبان، فهم معتادون على جرح الخصم بغرز السيف ونحن بالجرح بحد السيف أو من الظهر وهو ما يدركه، مما سيسمح لى بجرحه عندما أريد وذلك بمجرد أن يسطع فى قبضتى الاستخدام الجيد الذى أتقنه للسيف. وتعود الجسارة إلى جسدى.

لقد جرحته. حرصت على ألا يكون الجرح خطيرًا. يميل رجل لتفحصه بينما يتجه كل أصدقائه نحوى ويقول أحدهم:

- توقفا. أنتِ مقبوض عليكِ.

- وما السبب؟

- إن الهندى الذى يحمل سلاحًا يحق قتله. وبالذات لو كان ضد جندى...

أحاط بنا كم من الناس لرؤية المبارزة غير المتوقعة. يقوم جنديان بمرافقتى، وضعت السيف على الأرض و يا لحسن حظى! فبينما أنا منتصبة بينهما أرى "بيدرو دى أوثيخو" واقفًا بجانب رجل شديد الأناقة. يتحدث إليه دون التوقف عن النظر إلىّ. فيقوم الرجل الأنيق، وهو غالبًا صاحب العربة التى توقفت قبل بدء المبارزة، بإعطاء أمر:

- أحضروها هنا.

أسمع أحدهما يقول: نائب الملك!

يحملوننى إليه.

- تقول من هى يا "بيدرو"؟

- كنت أعرف أباها التعيس. لقد كان رجلاً مشهورًا جدًا برجاحة عقله فهو على الرغم من كونه فرنسيًا، كان يخدم الملكين الكاثوليكيين بوفاء يجدر ببعضنا الاقتداء به. كان يسافر مع ابنته التى، إضافة إلى القيام بمهامها كامرأة من حيث تولى أمر الملبس والمآكل، كانت رفيقة سلاح جيدة. وفى ليلة سرقها الهنود ربما طمعًا فى جمالها. مات الأب الطيب ليس فقط بسبب يأسه بعد طول البحث عنها، هنا وهناك، ما أصابه بحمى مستنقعات أقاليم "إيبويراس"، ولكن بسبب ألمه لفقدانها. والآن أجدها هنا. "كلارا"!

- معالى دون "بيدرو دى أوثيخو"، فى خدمتك.

ثم أركع تحت أقدامهما وتنانيرى ما زالت مشمرة كسراويل.

- إنك تبارزين جيدًا بالسيف. جيدًا جدًا بالنسبة لامرأة على هذه الدرجة من الحسن...

- مبارك سيفى إذا ما قدر له الدفاع عن معاليكم، أما فيما عدا ذلك، فإنه يخجلنى استخدامه، ولكن هكذا صار الأمر للدفاع عن شرفى. معاليك، إذا كان أبى العزيز قد علمنى استخدامه فالدفاع فقط عن مصالح ملكى إسبانيا. وبما أن معاليكم ممثل لملكى إسبانيا اللذين علمنى أبى منذ المهد طاعتهما وفى خدمتهما أضع ولائى الذى كان يدين به لأمى..

ـ كيف هذا؟

ينتزع "دون بيدرو" الكلمة منى.

ـ لقد وجد أبوها نفسه مضطرًا لترك زوجته لكونها الحبيبة الحميمة لملك فرنسا. وقد أخذ ابنته لكى لا يهدى رعية أخرى إلى الفرنسيين وطلب خدمة الملكين الكاثوليكيين...

سال لعاب نائب الملك لخداعنا.

انضممت لخدمة نائب الملك. وتركت جانباً الملابس الهندية. ولكننى لم أنجح فى التوصل إلى السماح لى بوضع زى رجل كما كنت أريد.

يزورنى "بيدرو دى أوثيخو". لم يختف منه سوى الحجر الذى كان يضعه على قدميه ولم أعد أرى ذات اليدين الدافئتين ولا "كوسمى" ولا أحدًا منهم. أعيش فى القصر الذى مكثت فيه سجينًا نصف نهار. يوجد بالفعل أثاث فى حجرتى وشرفة تطل على الشارع وباب أستطيع فتحه وغلقه بإرادتى ولا يدخلها أيضًا أى كاهن.

جاء اليوم "بيدرو دى أوثيخو" خصيصًا ليروى لى شيئا، فقد كان يأتى يوميًا لمهام أخرى:

ـ جئت أبحث عن إحدى "الميرثيديسيات" دون أن أخشى عبوس أىٍّ منهن.

ـ إحدى "الميرثيديسيات"؟

ـ نعم، تلك التى كانت تبكى للكونت، التى رأتك رؤية العين... لم تعتقدين قدومى؟

- للحديث معك عن الكونت...

- أى كونت؟ كيف تفكرين! إن هذا لا يمكن الحديث معه بوضوح...

- لكننى رأيتها حزينة للغاية، لقد حكيت لك...

- إذا كنت قد رأيتها أرملة فكانت أرملة المال وكانت تبكى من أجله. فقد كانت قد سمعت أن ابن أخ "دون أنريكيه" على وشك الوصول وحيث إنها تعتقد أنه مالك أمواله فقد جاءت اليوم لتسألنى عن شخصيته وإذا ما كان جميل الهيئة ولا يدع امرأة فى إسبانيا... يا للنساء! إنها تستعد لغرز أظافرها الناعمة فى قلب ابن الأخ ولأن أظافرها جميلة للغاية، فإنها واثقة بأن ابن الأخ هذا سيتبعها إلى آخر العمر.. لكن ليس قبل أن يغطيها تمامًا بالأملاك والغنى.

- وكيف هو ابن الأخ؟

- لا يستحق اسم "أوركيثا". ليس له حضور، أما قلبه فيبدو لى من معدن. وعلى عكس اليونانيين (قساة من الخارج وهم من الحجر الذى ألقاه أحد رجالهم الأولين والذى جعلهم جنسًا قوى الاحتمال وقاسيًا)، فإن ابن الأخ مفرط فى تراخيه وضعفه ومن الداخل قاس مثل ناقوس أجوف. وهى صفات لم ينتحلها فهو مطابق لأمه. لكن، بما أنها مصاهرة آل النمسا...

- بسبب هذه العلاقات لم يكن "أوركيثا" فى السجن عندما حُملتُ لأحل مكانه؟

ـ ولهذا، عومل من بين ما عومل بأقصى أنواع الاحترام حتى آخر دقيقة ولكنه كان سجينًا بالفعل. آما كونه لم يكن فى السجن الملكى فهذا أمر آخر وقد عالج هذا بدفع ثلاثين بيزو من الذهب المطروق لعمدة البلاط ونفس الشىء لرئيس القضاة التابع له بحيث سمحا له بالبقاء بمنزله على الرغم من كونه سجينًا...

ـ وما الجريمة التى ارتكبها "دون أنريكيه"؟

ـ ارتكب... كان على خلاف مع نائب الملك فقد اكتسب صداقة أغلب الكريوبوس وعارض بأعلى صوته القرارات التى كانت تملى معاملة أكثر تراخيًا مع الهنود وتنكر حق ميراث الإقطاعيات للجيل الثالث... أيهمك ذلك؟ إنك لا تعيريننى اهتمامًا وتلهيننى...

ـ إننى لا أميل إلى "دون أنريكيه". لا يجب أن أسأل عنه...

ـ أتفهم موقفك على اعتبار أنك فقدت بسببه ملابسك الفرنسية وذهبت للطواف بالمشنقة...

ـ ليس لهذا السبب. ففى اليوم الذى هربت من تابوته، وبدلاً من مكافأتى بالشكر على أننى أقمت مقامه، قام ـ عندما اكتشف أننى امرأة وفى زى هندية ـ باغتصابى أمام خدمه وبمساعدتهم...

ـ لا بد أن ذلك كان فى اليوم الذى قاموا فيه بدفنك بعيدًا عن "بويبلا"، وكان معه اثنان يمتطيان... فإذا كان قد استغل شخصك فلتحلى محل الفارس "فلورسى". فلسبب ما "دون أنريكيه" صديقى، فهو رجل شريف وصاحب كلمة وهو لم يتخلف بالمرة عن رد

الجميل. لا بد أنه قد التبس عليك الأمر بعد آن بقيت محبوسة فى صندوق للموتى وأعتقد أنه آمر يشوش على عقل أىٍّ كان...

ـ رأيت أيضا أن مياه البحيرة كانت تطيع "كوسمى".

ـ كيف كان هذا؟

ـ لا أعرف إن كان حقيقيًا... إن ما رأيته، وهو قليل الوثوق فيه، هو أننى رأيت أيضا، وشعرت بالكونت "أوركيثا" عندما كان لا حول له ولا قوة، وكوسمى يستحث ماء البحيرة وبما أن هذه لم تكن تصل إلى الصنادل طاعة لحركاته، فقد فاضت حتى طافت بهما وحملتهما إلينا.

ـ وقد قامت محكمة التفتيش بأسر كوسمى منذ خمسة أيام. ربما يكون قد رآه أحد آخر غيرك وهو يفعل المستحيل... ولو أننى لا أعتقد ذلك، فلإهانة هؤلاء السادة لا ضرورة لتحريك مياه ولا حتى تحريك ماء فى كوب، أو لأن يروا جنًا فى المكان المناسب لرؤيته ويقتفوا رائحة الكبريت حيث تكون رائحة الزهور هى فقط الشىء الحقيقى. وفوق ذلك، من كان سيراه يقوم بأى شىء يشبه السحر المؤذى الذى ينتهك قانونًا ما للطبيعة؟ إنه شخص خرج لتوه من التابوت ورأسه مغطى بتراب القبر... مسكين يا كوسمى! فلأنه هندى ومؤمن لا بد أنه اعتقد أنهم قادمون من عند الله أو لا أدرى ما حدث، إنه بعد التعذيب الأول، وعندما قاموا بتهديده بالعودة إلى تعذيبه، مات كوسمى دون معرفة السبب، قد يكونون شقوا أحشاءه خلال الاستجواب السابق أو أن الخوف قد قتله أو أن السيدة

العذراء قد شملته برحمتها وحملته معها قبل أن يقوموا بزيادة تعذيبه. ولو أن هناك من يقول، وأخشى أن يكون على حق، إنه بعد تهديده بتكرار تعذيبه إذا لم يعترف بالممارسات الإلحادية التى يتهمونه بها، اكتشف سجانه فى اليوم التالى أن كوسمى قد شنق نفسه هربًا من التعذيب.

على كل، ما أريد أن أقوله لك هو أن كوسمى مات يوم أمس بعد أن ظل أربعة أيام فى قبضة محكمة التفتيش. لا بد أن الأمر كان نتيجة التباس، أن يمسكوا به فى الشارع وليس فى منزل أوركيثا، وإلا لكان كل الخدم فى قبضتها. لا، ليس هذا. على كل الأحوال، لا بد أنهم قد وصلوا...

يبدو أنه منذ وصولى هنا وكل شىء يقع هناك، حيث حسب اعتقادى كنت فى الحبس مسجونة، بينما فى قصر نائب الملك يأخذ التعب اليومى فى التحول بالنسبة لى إلى روتين.

- مسكين كوسمى!

- طالما لا يقتربون من الآخرين...

جرى الحوار بيننا فى أحد الأفنية وحدنا. ومع آخر جملة لبيدرو دخلت امرأة هندية تحمل تطريزها، ابتسمت لى وجلست بجوارى لتحتل المكان الوحيد المتبقى فوق الدكة البيضاء. أغلق بيدرو عينيه. بسطت المرأة التطريز فوق ساقيها وكلما وضعت إبرة التطريز فى القماش استيقظ ما فيه: فتحرك الطيور الجامدة أجنحتها وتسطع الشمس وتهز الريح أوراق الأشجار وتفتح السناجب مناقيرها

ويستعد الديك للصياح؛ وعلى الرغم من عدم سماعى كوكو كوكو، فإننى أراه يصدر ذلك من خلال حركاته. قطعة قماش التطريز ذات أبعاد ثلاثة. إنها قطعة من الدنيا. تخرج المرأة إبرتها من القماش وهى تجذبها نحوها. وما إن ينتهى طريق الخيط بالغرزة، حتى يستعيد القماش مظهره الجامد. تطوى المرأة القماش وتنظر لى بطرف عينيها وتبتسم، تنهض من فوق الدكة وتذهب سائرة وبين يديها تطريزها. بقى "بيدرو" مغلقًا عينيه. آى! كم كنت أحب أن أطرز هكذا وأن أخلق بخيوطى قطعة من الدنيا، أن أطرز لنفسى بزة رجل وأخرج من هنا. فأعود إلى الكاريبى وأجهز أسطولاً وأسلب ألف ميناء. وأصبح غنيًا وأنفق كل مالى فى اللهو. ثم أصبح غنيًا من جديد وأخسره كله لأعود وأبدأ سطوًا آخر. ولكن لتطريز هذا القماش سأحتاج إلى معرفة أسرار الهنديات.

لست مستعدة لتعلم هذه الأسرار. أكره العيش داخل إطار الحياة المنزلية وهو النطاق الوحيد، ربما، الذى يبحن فيه بأسرارهن.

أفروديت والوحش

حلمت منذ أيام مضت بأن وحشًا غريبًا يشيع الرعب فى الشوارع والقرى الهندية. ويأتى فى الحلم وفد يطلب مساعدة نائب الملك. لا بد أن الحلم ذو مغزى، فكما أننى فى اليقظة ما زلت مقيمة فى قصره ومن أوفيائه، وعلى الرغم من كونى امرأة أجتهد كرجل بحماس فى خدمته (أضع ملابس قشتالية وهناك أربع هنديات لرعايتى وثلاثة إسبان لمساعدتى على حماية نائب الملك. وعندما أقيم بالقصر، وكما ذكرت، أضع ما يتناسب مع سلوكى، كرجل إذا ما استدعى الأمر)، فإنهم فى الحلم يستدعوننى كى أقوم أنا ورجالى على رأس مجموعة من الجنود، بقنص الوحش وأن أحرر البيض والهنود من الرعب.

ويقولون لى - فى الحلم - بأن الوحش ينزع قلوب صغار البنين والبنات وبأن عدد القتلى وصل إلى أربعة هنود وأن هناك الآن طفلة مولّدة وإسبانيًا عمره سبع سنوات. وأن الوحش غريب الشكل. ويقول البعض إنه يطلق ألسنة لهب من فمه، وآخرون إن له يدين،

وآخرون إنه أحمر الشعر. أخرج لقتله. نجتاز الوادى. وما إن اختفت الهضاب المحيطة به، عند ضواحى القرية التى يعيش فيها الهنود الذين قتلوا، يتوقف قلبى عن النبض ولا أملك حراكًا. يجذبوننى إلى حصانى، يشعرون أننى أتنفس، لا يعرفون مم أشتكى، يستعدون (أسمع هذا) للعودة لحملى إلى أحد الأطباء. ثم، فى منتصف الطريق وفى غفلة من رجالى، غير المسلحين والحريصين على رعايتى، يظهر الوحش الذى يعجز عنه الوصف. نعم، كانت له يدان، كما يقولون، وفى نهاية أطرافه أظافر طويلة من أسنة. شعره أحمر وذقنه كذلك، جلده كجلد الفهد وظهر أبيض وذيل تنين... لن أكرر كم المعلومات المستخدمة لوصفه، يتعارض بعضها بعضًا. لا أرى شيئًا. أعتقد أننى مت. مقيدة بالحصان الذى يصهل ويدور حول نفسه. يصيح رجالى. يطلق أحدهم النار. يستمر هرج ومرج الخوف. يطلق آخرون النار. صفير الطلقات بالقرب منى. يقع حصانى، تؤلمنى قدماى. ينغرز مخلب فى ظهرى وأسمع جسدًا يخر. صمت.

يقترب رجالى. لم تؤثر الطلقات فى الوحش ولكنه يخر بمجرد لمسى. لقد مات. يخرجوننى من أسفل الحصان الذى قتله الوحش بضربات مخالبه، ويضعوننى فوق آخر، جريحة ومتصلبة. أسمعهم يحفرون، يقومون بدفن الوحش.

عدنا إلى قصر نائب الملك. قبل الوصول، يعود قلبى إلى النبض وأستعيد الحركة.

أقوم بارسال بعضهم لاستخراج الوحش لإعطائه لنائب الملك كدليل على نصرنا، بينما نسرع نحن الخطى للوصول بالنبأ.

يسعد نائب الملك. تمر الساعات. يعود الرجال الذين أرسلتهم لإحضار جثة الوحش بدونها وهم يقولون: إنهم لم يجدوا فى المكان الذى دفنوه فيه سوى هذا، وهم يظهرون لنا ثعبانًا ميتًا.

أقول: هكذا يكون شكله بعد موته.

أستيقظ.

لا أحد يتحدث عن الوحش فى اليقظة. أما أنا، فما زلت فى خدمة نائب الملك وأضع الملابس البيضاء، وعلى الرغم من ذلك أعمل كإنسان وفى. أنا كفء ولا غبار علىّ، نائب الملك فى حاجة إلىّ.

لا يوجد وحوش ولكن إذا كان هناك منهم فهم الإسبان الذين يستغلون أرض الهنود. أمام هذا، لن يكون جسدى سلاحًا ولا حتى دفاعًا. ليس لكونى مصلوبة فى مظهر امرأة ولكن، لأننى مقيدة بالوادى، إنى عبدة له، هذا ما يقوله الحلم، وقد ثبت هذا فى اليقظة. فإذا ما تركت المكسيك لمسافة ستة فراسخ، أختنق ويعيل صبرى مثل سمكة بلا ماء وتسيطر علىّ رغبة لا تقاوم فى النوم. لن يستطيع أى سجين قتل الوحش الذى يصعب وصفه والذى يقوم بخلع قلوب أطفال القرى الهندية.

وإذا ما كان للوحش وجود فبدلاً من ذيل تنين وظهر أبيض وشعر أحمر وجلد فهد، سيكون مأمورًا قضائيًا، أسقف أبرشية، حاكم

بلد، نائبًا، حارسًا، خادمًا للملك، قاضيًا، مدعيًا عامًا، مستشارًا، حارسًا وقائيًا، وسيطًا، لأنه لا يوجد هندى معفى من الضرائب ولا عامل فى خدمة الملك لا يعيش فى آخر الأمر من هذه الضرائب. وإذا ما وجد هناك جسد يمكن أن يدمر حياة "الوحش" فسيكون مختلفًا للغاية عن شكلى، أشك فى أن تستطيع عيناى رؤيته.. ولو أنه الجسد الوحيد الذى أرغب اليوم فى أن أكونه.

لا بد أن فى فرنسا بعضًا من هذه الوحوش التى تسير طليقة بلا أم أو أصول، تولد من الضباب والخوف، أو من الجوع والبرد. وفى إنجلترا وجرمانيا. هنا لا يمكن أن يكونوا، أنا متأكدة، إذا ما لم يكن فى حلمى. أن ما يهيم هنا فى الليل، أو فى أماكن السير، قليلون، امرأة تبكى طليقة الشعر رثة الثياب، تسير وهى تنادى بصوت حزين على أبنائها القتلى بكل تأكيد على يد الوحش عديم الجسد أيضا وهو كثر.

حلمت الحلم الذى وصفته منذ أيام مضت. قلت إننى لم أعد أؤمن بالوحش. ولكن بين يوم الحلم واليوم كان لا بد من اقتناعى بأن جانبًا من هذا الحلم حقيقة. نعم، فعندما أخرج من الوادى وأبتعد أكثر من ستة فراسخ، أختنق. وأقع فى سبات يرتق الحلم. لا أسمع، لا أرى، لا أشعر. لا أحد يستطيع قتلى. يكفينى العودة هنا لكى أستعيد الحياة. ولكن هذه الكومة التى تحولت إليها أدت إلى إنقاذ حياة الذين كانوا معى. إنه يشبه فى مخيلتى الحلم ولكن، على العكس سوف أكرره كما يرويه "ماريانو باسو"، أحد الرجال الذين كانوا ضمن الفرقة التى شكلتها والتى كنت فردًا فيها:

"حصلت "كلارا فلور" مستشارة نائب الملك (يقال إن هناك إعجابا بينهما)، على إذن من هذا الأخير لكى تضع ملابس الرجال وبهذا تشكل جزءًا من المجموعة المسلحة التى اتجهت إلى "كيريتارو" لإخماد ثورة بعض الهنود المتمردين القادمين بسلاحهم من أقصى الشمال حيث أبناء قبيلة "التشيتشيميكا" يحاربون وينتصرون فى سعيهم، مسببين مشكلات فى قرى هندية وقتلى فى بلدات ومدن ومواقع مناجم، وهم بارعون بشكل نموذجى فى استخدام سلاح الهنود والبيض. وقد أقنعت نائب الملك بالانضمام إلى السرية التى ستتكون من أمهر مستخدمى الأسلحة النارية والسيف، مجموعة مخيفة من المحاربين أكثر منها جيش نظامى، وإذا ما كانت مهارتها وبراعتها تجعلها جديرة، كانت الدروع هى الحائل الوحيد.

"وهكذا خرجنا من مقر الحكومة الحربى فى ٢٧ من مارس عام ١٥٧٢، براعم حرب محررين من الرتب والضباط الضروريين لتشكيل سرية تقليدية ـ فى حالة الإسبان يمثل ذلك عجزًا بحتًا فى فاعلية السلاح ـ ثلاثة وأربعون من الثوار الغاضبين، ليسوا جميعًا جنودًا، وأكثر من اثنين من قاطعى طريق ومدقعى العيشة مهرة فى استخدام السلاح وسجناء هذه الأيام فى القصر. كنا معبئين مثل جيش كامل تصاحبنا مدفعية وخدم ومطايا ومؤن.

"يجدر القول إن تشكيل صفوفنا على هذا النحو كان فكرة "كلارا فلور" التى تستند فيها على الأنظمة التقليدية وبدون وجود موثق لتسجيل خروجنا بحجة أن الجيش النظامى لن يقضى على الهنود

المقاتلين. استمع لها نائب الملك واثقًا للغاية فى مفاتنها، وقليلا فى دهائها. بحيث إنه على الرغم من كونها ليست القائد المعين، لعدم تمتعها بأية رتبة فى الجيش، فهى الوحيدة التى تعطى الأوامر، وكنا لا نطيع سواها مأخوذين بشهامتها وشجاعتها وخاضعين لسر جمالها.

"وحتى عندما بدأت توعكاتها. كان أمامنا ستة فراسخ سيرًا عندما بدأت قدماها فى التنميل. لم تطيعاها لم تكن قويتين. لم تقويا على حملها. كان علينا أن نربطها فى مطيتها وكان الحيوان يحبها كثيرًا ولا يستجيب الا لصوتها. ثم جاء دور اليدين والجذع حتى أصبح علينا إطعامها فى فمها. ثم أصبحت منومة كلية، باردة كالميتة، جامدة كجثة، تتنفس، ولكن بلا أمل فى أن تأكل شيئا لاستحالة فتح فمها. كان ذلك قبل حوالى ثمانية فراسخ من مقر الحكومة الحربى. على كل الأحوال قررنا المضى. هى بنفسها طلبت منا هذا قبل الدخول فى السبات المميت الذى لم يحقق تقدمًا إلى الأسوأ أو إلى الأفضل بقدر تقدمنا فى السير. لم يكن هذا السبب الوحيد لعنادنا. فلا أعتقد أن أحدًا منا كانت تحركه حمية طاعة نائب الملك، وإنما على العكس، الوعد بالحرية بالنسبة للسجناء الذين جاءوا معنا، والمقابل المادى السخى فى حالة تسليم رأس الزعيم الهندى "يوجواى" الذى سوف يجعلنا جميعا أغنياء.

"لم يمض وقت طويل فى تحول المشاجرات الصغيرة إلى كبيرة لعدم وجود سلطة للتوفيق بيننا ولا شرب نبيذ بإفراط يعيد إلى

الصواب تجاوز الرحلة، لأنه قبل توقعاتنا باصطدامنا بهم بكثير، كان "يوجواى" قد نصب لنا كمينًا.

"لم يكونوا ضعفنا عددًا فقط، بل أخذونا على غرة. يا إلهى، كم كانوا شرسين، قلوبهم تشتعل بلهيب شيطانى، وجوههم وأجسادهم مطلية كالمجانين! كانت إستراتيجيتهم تفريقنا ومحاربتنا كلاً على حدة كما فى المبارزة بحيث إن أحدًا لم يستطع حماية "كلارا" المربوطة كجندى من الخشب فوق مطيته. يا لعنادهم، يهاجمون رجلاً مقيدًا حتى لو كان مظهره حيًا وقائدًا وحتى لو كان متصلبًا وليس مترهلاً أو معقوفًا فوق حصانه، كان عليهم الانتباه إلى أنه كان من حجر. أدى من لوّح بسلاحه نحوها إلى قطع ثيابها من أعلى إلى أسفل، وما لم يقو السيف على فعله تكفلت به الأيدى التى أيقظها الفضول فقامت بنزع الملابس تاركة الجسد المكشوف معروضًا.

"عند رؤية أن الثديين لامرأة وجذع لا يدمى رغم جرحه، صاح القائد الهندى "يوجواى" بلغته، يعلم الله بماذا، فاحتشدوا جميعًا وانطلقوا فرارًا أسرع من سريان النار فى الهشيم، مما حررنا من غضبهم فى غمضة عين.

"كانت جروح ثلاثة من رفاقنا خطيرة للغاية، لكن أسوأ الحالات كانت "كلارا فلور" وجذعها عار مشرحًا هنا وهناك، كانت تثير الشفقة والرعب، فمن يدرى كيف صار دمها النائم والذى لا يتدفق، راكدًا على الرغم من ولوج وخروج السيف عدة مرات فى جسدها الأبيض الجميل ما جعلها مكشوفة.

"تركناها مربوطة بالحصان وغطيناها بقدر إمكاننا بدثرنا كما قمنا بعلاج الجرحى قدر استطاعتنا، ثم بدأنا العودة بلا رهينة نستطيع بها الحصول على أجزل مكافأة، ولكننا منتصرون، مما سيجعل بلا شك نائب الملك يعطينا جائزة طيبة وما نسعى إليه من حرية واستقامة العيش.

كنا على بعد سبعة فراسخ من المكسيك عندما بدأت "كلارا فلور" تتألم. توسلت إلينا أن نرقدها لأن آلامها مبرحة. صنعنا لها نقالة. كانت تؤلمها كل الجروح التى لم تكن تدمى ولا تندمل. وهكذا، فى ألم مستمر، قطعنا بقية الطريق حتى أرقدناها على سرير حجرة نومها فى القصر.

"قام نائب الملك بمكافأتنا جميعا بسخاء. فقد أطلق سراح السجناء وطالبنا بعدم إفشاء قصة ما حدث مع "كلارا فلور" ولم نكن ـ أعتقد إلى حد كبير ـ نرغب فى الخوض فيها لا مع زوجاتنا أو أولادنا ولا مع خدمنا وأصدقائنا وكنا جميعًا مهتمين بمعرفة ما إذا كانت "كلارا فلور" ستتعافى وما إذا كانت جروحها ستندمل وتعود الدماء إلى عروقها. ولكننا لن نكون فى القصر. فإذا لم تنهض "كلارا فلور"، ربما لا نستطيع أبدًا العودة لدخوله وربما لن نستطيع حمل السيف".

أنا هنا راقدة فى الفراش، ممددة دون آن أستطيع النهوض، محاصرة بجروحى التى تأبى أن تندمل وتقبل أن تؤلمنى، وإليكم ما أعيشه ليلاً، فقد جاء بخاطر "دون بيدرو دى آوثيخو" أن يسلينى،

ولأنه لا يحتاج إلى مال (فهو إضافة إلى مكسبه من الذخائر الدينية وفى غيابى أصبح صاحب استحقاق للنقود الذهبية الخاصة بمسابقة للشعر) أقول إنه قد جاء بخاطره، وقد بدأ بتحقيقه، بأن يأتى لى بتراجيديا على أجزاء وهو يستعين فيها بنفسه فقط وبممثلة، أما بقية الشخصيات فيتولى القيام بها عبر الحديث عنها، لأنه هو وامرأة. هما الكيان الأساسى الذى سيحرك أشعاره إذا ما استطاع يوما نشرها، ولكنها لن تؤدى سوى فى محبسى وليس أبعد من ذلك، فلن يستطيع أحد سماعها. يقول بيدرو بثقة: "لدى المال الكافى كى أسعد بعدم الكتابة مكلفًا بذلك، إننى أكتب ما يحلو لى ولا أطلع عليه أحدًا، فإضافة إلى أنه لن يرضى الكثيرين، سيجعلنى أتعارك مع تافهين ومنافقين. مع جهلة وجبناء، مع أذكياء وأغبياء.. أفعل ذلك لأنها رغبتى. ولكِ، كى تنسى جروحك...".

لهذا، ولراحتى ومتعتى، أحضر لى "بيدرو دى أوثيخو" فى معزلى، على مدى ليال، أفروديت ذاتها. لم أستطع فى الجلسة الأولى سماع الأبيات الشعرية تقريبًا فقد كان ألمى شديدًا. يحزننى الاعتراف بهذا ولن أبوح له به، ولكنها الحقيقة. لقد جعلتنى جروحى أفقد المذاق الأول لهذه الوليمة التى أعادوا تكرار جانب كبير منها بعدها بأيام، لأن تمثيل المسرحية كان يحمل طابع التجريب أو التدريب الذى تتكرر فيه بعض الأشياء مع تغيير بها فى هذا أو ذاك بحيث إن كل ليلة يُعاد تقديم أفروديت كلها تقريبًا على أجزاء أكدتها لى.

فى الليلة الثانية، وقبل "بيدرو دى آوثيخو"، دخلت أفروديت الجميلة وهى صامتة (من حيث الجمال، فإن هذه الممثلة الهزلية، والمعروفة بـ "الإيطالية"، تتمتع بالكثير منه إضافة إلى أنها خجولة وحزينة)، تحمل شباكًا كبيرة بدأت بترتيبها هنا وهناك دون أن تتحدث إلىّ حتى غلبنى النوم؛ وعندما استيقظت، بسبب الضجيج الذى كانوا يحدثونه لمناداتى، فيا لدهشتى، كانت الشباك معلقة فى السقف ويتدلى منها كل من "بيدرو دى أوثيخو" و"أفروديت" الإيطالية بلا أية ملابس! ولدى رؤيتى مستيقظة تظاهرا بالدهشة. حاول كل منهما تغطية الآخر، وعلى الرغم من أن توعكى كان كبيرًا وأكبر منه نومى، فقد أفسح توعكى ونومى الطريق لدهشتى وتسليتى بأن أرى "بيدرو" بلا ملابس وكذلك "أفروديت" وأن يتظاهر كلاهما بالإحراج من رؤيتهما هكذا علمًا بأنهما فعلا ذلك من أجلى.

بعد دقائق قليلة، تحدث إلىّ "بيدرو" قائلاً: كفى. أغلقى عينيك يا "كلير". تذكرى المشهد. غدًا يظهر الصوت. لأن الزوج الغيور يحبس "أفروديت" فى شبكة مع عشيقها، وقد وشت الشمس "هليو" بها، ونصب لهما "أفستو" هذه المصيدة... غدًا تسمعين القصة". وبينما أخذ يتكلم، كنت أسمعهما، وعيناى المطيعتان مغمضتان، وهما يخلِّصان نفسيهما من الشباك وبأحدهما يقع كالجوال على الأرض. "يمكنك فتح عينيك". كان كلاهما هناك خارج الشبكة يضعان ملابسهما.

"غدا نستعمل الصوت، وستكون أفروديت فى الشبكة بدونى لأننى سأقوم بإصدار الأصوات المختلفة للرجال الذين ينظرون إليها".

اتجه إلى أفروديت وساعدها فى الانتهاء من ارتداء ملابسها ثم ودّعها. جلس والشبكة بين ذراعيه، بجوارى على السرير دون استئذان جروحى المسكينة، آى، التى كانت تتأثر بأى حركة.

"اغفرى عرض اليوم الصامت، كنت أرغب فى أن تريها كما هى فى الأصل وعدد الممثلين المتوفرين لدينا أكثر. لدى الآن البرلمانيون...".

عندئذ تفضل علىَّ بإعادة الجزء الأخير من أبيات اليوم السابق والتى تستيقظ فيها "هليو"، لترينى أنها قررت زيادة بعض الأبيات حول هذه الأرض، لأنه "إذا كان "أزيب" قد انسحب جهة "الشفق" ومملكة الأنباط، إيران والقمم التى تمتطيها أشعة الصباح وظل "النسيم" بالقرب من الغرب وضفاف غروب الشمس وغزت "ريح الشمال" "أستيا" و كوكب "الدب الأكبر" وظلت "رياح الشمال" فى الأقاليم المحاذية للأرض، فأى رياح تنتمى لهذه الأرض؟ فلا يعقل القول بأن الرياح لا تهب هنا ولا أعتقد أن تكون "رياح الشمال" ذاتها هى التى تغرق السفن عند محاولتها الوصول إلى هذه الأراضى الجديدة"، وما إن انتهى من هذا القول حتى انطلق فى إعادة جزء من أبيات اليوم السابق. إننى لا أستطيع وضع أبيات شعرية، وذاكرتى لا تستطيع تكرار ما يتلوه علىَّ. ولكننى لا أعرف كيف أعيد

رواية القصة دون آن أستنطق شخصياتها بكلمات قريبة من التى كتبها "بيدرو دى أوثيخو" والتى كانت، عندما تحدث "الدجى"، بما يشبه "نحن فقط من يرى أراضينا. حان وقت ذهابنا. بدأت "هليو" تفتح عينيها. لنهرب! لنستعرض جسدنا المظلم! لنسافر فيه ونحن محدقات، عبر البحار، ثم لنصل بعد ذلك الى أراض أخرى... وداعًا...". ثم "هليو":

"ليحرر الضوء الوغى بجفنىّ./ ويضرم بصمت وهجًا فى الظلام بألف لون/ وتكسو من جديد عباءة السماء درجات مختلفة من الألوان/ وماذا تجدى إذا كان كل شىء فيها على نفس هيئة الأثير عديمة الشكل والوزن؟/ لأنها بقدر شكلها يكون وزنها/ والسماء لا تزن لأنها لا تملكه". ثم بدأت معركة ما بين الدجى والنور حتى تدخلت "هليو" مسرورة:

هليو: عربتى هى دارى. وهى مصنوعة من ذهب وكل يوم تزين بمحصول من: الفريز والبن والبرتقال والآجاص والصبار، ويكسونها بالأحمر الوردى قبل آن تبدأ سيرها. كنت أرغب فى أن أستبقيه. فجر، فجر، فجر، فجر!

فجر: وجودى لمدة ثانية لن يفيدك. ستفسد الفاكهة ويتحول الذهب إلى قش، وتعاودين أنتِ خطواتك، هليو، هليو، هليو، هليو، تهلك الدنيا إذا ما توقفتِ!

هليو: أنام كل ليلة فى كوخى الوثير. ومع الصياح المقدس للديك أستيقظ منتبهة. أقود عبر السماء عربة تجرها أربعة أحصنة.

تستمد الكلأ من جزر "المقدس" فقط. أسير بمحاذاة تيار المحيط المتدفق حول البحر. آركب عربة ومطايا فى معبر صاغه "أفستو" ذاته.

ظل يتلو أبياته حتى غلبنى النوم. لم تكن هناك حاجة إلى جهد لتحقيق هذا، فأنا أضعف من وردة متفتحة؛ هبتان أو ثلاث هبات ريح تمر تنزع أوراقها..

مر علىّ اليوم وأنا نائمة. لا يتمتع جسدى بالقوة الكافية ليستيقظ ذاتيًا، وقد أعطى نائب الملك أوامره بألا يقوم أحد بالمرة - غير "بيرو دى أوثيخو"، إضافة إلى شخصه - بدخول حجرتى حتى لا تتسرب أخبار حول وضعى وما أمر به. كان "بيدرو دى أوثيخو" قد ترك لى فى الليل ماء للشرب وفاكهة وشريحة جبن وقد وجد كل شىء على حاله فى الليل، عدا الماء، الذى أتنبه إليه بالفعل بشدة، فالعطش يكوى حلقى حتى فى الأحلام.

استمرا فى الليل مع حيلة الشبكة مع تغيير فى المظهر. فقد أجلسانى بجوار الحائط فوق دكة يمكن استخدامها جيدًا كسرير واحتلا هما سريرى، وكلاهما بلا ملابس، فى عناق حب استمر لدقيقة لأنه "أوه، ما هذا"، قالا فى صوت واحد "لقد نصب لنا "أفستو" فخًا، تحسس بأصابعك، إنها شبكة! قالت أفروديت، بينما "آريس" (بيدرو دى أوثيخو) يمثل بجسده العارى وبكل قواه، محاولة الخروج من فخ، لا تراه عيناى لعدم وجوده، حتى يستسلم ويقع فى سكون تام. هنالك بدأت أفروديت فى الكلام بحيث أدت عظمة

نبوغها وملاحتها وجمالها إلى أن تتراءى لى الشبكة غير الموجودة وبدت الآلهة، التى كانت تتحدث عن رؤيتها، وكأنها حاضرة:

أفروديت: لقد بقيت حبيسة الشباك الخفية التى نصبها "أفستو" من غضب وغيرة وبراعة بحيث يصعب حتى على الآلهة رؤيتها فهى فى رقة نسيج العنكبوت وقوة درع "أخيليس". إن براعة يد "أفستو" لا يجب أن تدهشنا فهو الذى قام أيضا فى سندانه وبطلب من "تيتيس" ذات الضفائر الرائعة التى أنقذت حياته، بصياغة درع "أخيليس" الرائع... كان من أجل "تيتيس" أن وضع فى النار النحاس الصلب والقصدير والذهب والفضة وبالمطرقة والكلابتين صنع لـ "أخيليس" درعًا لا يُقهر بخمس طبقات بحيث صوّر الأرض والسماء والبحر والشمس والقمر والنجوم ومدينتين بسكانهما فى أوضاع مختلفة وأرضًا رخوة بيضاوية وحقلاً خصبًا وشاسعًا ومزارعين وحقلاً به غلال نامية وحصّادُها بمناجيلهم وثورًا مخصيًا مذبوحًا للوليمة والكرْم وقطيع الغنم وأسدين يفتكان بثور ومرجًا كبيرًا بين أودية بديعة ترتع فيها الشياه وزرائب وأكواخ وحظائر، ورقصات وآلات مزاهر والشاعر الحماسى وتيار النهر الأوقيانوسى. كيف لى أن تحرك إعجابى آية هذه الشباك غير القابلة للتمزق إذا كان لـ "أفستو" مثل تلك الآيات؟ أمر تافه بالنسبة له تشكيل الشباك القوية وغير المرئية! لم يضع للشباك أى زخرف، يعرض عِقدى وعُريى، كل ما أملك من جواهر، رغم كونى امرأة الصانع. فلا المشابك الدائرية ولا الأساور والخواتم والعقود تملك القدرة الهائلة على إشعال الحب والرغبة فيمن يراها بينما عقدى يفعل... ولكن

ما يثير الإعجاب هو سقوط أفروديت الذهبية فى شباك تجعلها عرضة للرجال! تتبع سيرى النمور الهادئة أو الأسود ذاتها وبجمالى أجبر الجميع على الاستسلام للحب الثائر! وعلى الجانب الآخر يا "أفستو"، أجدنى حبيسة وفريسة ومهانة ومعرضة للخطر، أترى ذلك؟ (لا تراه، فقد أعماك الغضب)، إننى أتألم لك أكثر من تألمى لنفسى بجَرّح إحساسى وتقديمى عارية أمام الآلهة. لم تهبط أية إلهة بفعل صيحات غضبك فقد ألزمها حياؤها بيتها. أما هم، فعلى العكس، أكثر فضولاً وأقل حساسية، بقوا هنا ينظرون كيف تم تقييدنا أنا و"آريس" فى الفراش. ولكن ليس هناك من لم يقع مقهورًا ببريق عِقد الحب الخاص بى. إن مزاحهم لا يستطيع إخفاء ذلك.

"أيها الرسول "هيرمس"، يا بن "زيوس" واهب الخيرات - يقول له "أبوللو" رامى السهام السامى - هل تريد أن تكون سجينًا فى هذه الشباك المنيعة رغبة فى النوم فى مضجع أفروديت الذهبية". فيجيبه الرسول "أرخسيدا": "فلتكن إرادة السماء أيها الرامى السامى أن يحدث هذا! يا ليتنى كنت سجين شباك معقدة ثلاث مرات عما هى وحياة كل الآلهة والإلهات مقابل أن أنام مع أفروديت الذهبية". وزيوس، أبى بالتبنى - وجمالى الذى لم يرق أبا ولا أما، ولدت جميلة على الدوام، فأنا ربة لزبد البحر، عارية، تصاحبنى النوارس والحمام وتستريح قدماى على صدف قوقعة هائلة - هو الوحيد الذى لا يضحك معهم ويفكر فى ذاته: "أيها الغبى "أفستو" ما كان يجب عليك أبدًا كشف عورتك لأنك بذلك لا تجرح سوى

ذاتك"، ومحادثًا نفسه، يشعر بالرغبة التى طالما شعر بها نحوى والتى لم يستجب لها بالمرة ويجيب ثائرًا "لا" لطُعم إغراء "آفستو" الذى يردد بلا توقف: "جميلة هى بالفعل ولكنها لا تتمالك نفسها. تفعل بى هذا فقط لأننى أعرج القدمين، ولأننى لست رشيقًا ولا وسيمًا مثل "آريس"؟ ليس الذنب ذنبى وإنما ذنب أبوى اللذين ما كان يجب عليهما إنجابى! أطالب بإعادة الهدايا العظيمة التى أعطيتها لـ"زيوس" لدى خطبتها! وإذا ما أخذت فى الصراخ بالرفض فليدفعها لى "آريس" لأننى آرفض أفروديت، فهى بالفعل جميلة ولكنها لا تتمالك نفسها".

لم أستطع رؤية وجه "آريس" ولم ينطق بكلمة. ولشدة قوة انفعالنا منعت شباك "آفستو" توحدنا. فهو معلق بالشباك بالقرب منى بشكل مثير ولكنه بعيد عن بلوغ أقصى درجات العاطفة. فجسده الذى تمتعت به وأحببته بتشبث تمادى إلى حد أن أبنائى الثلاثه، "فيبو" و"ديمو" و"أرمونيا"، عندما عُرضوا أمام "أفستو"، كان ثلاثتهم نسخة من "آريس". كان جسده، المرغوب عن أى غيره، منبع إيروسية، والذى رأيته دوما وهو مكسو بزيت إلهى بعد ساعات من اللذة فى المخدع (عديدة إلى درجة أن "هليو" كانت هى من وشت بنا لـ"أفستو" عندما كنت أبحث عنه ليومين لدى عودتى من "ثراكى" عند هبوط المساء)، مشدودًا إلى جسدى، فهو ليس ذلك الذى يغرينى بالرغبة فيه ولمسه، إنه ثقل لا أريد أن أظل معلقة به، كالثور لا يرغب فى الجرس.

لا يذعن "زيوس" أبى بالتبنى. يستمر "آفستو" فى الدعاء بالشر، لا يطالب سوى بغرامته. وفى خضم الغضب أعترف بالحب الذى يقره لى زوجى.

متملك كبير...

لا أعرف ما إذا كانت أفروديت قد توقفت هنا أم بعد ذلك، فقد أدى ضعف حالتى الصحية إلى توقف انتباهى ولم أستطع متابعتها لأكثر من ذلك. وضعت هى و"بيدرو دى أوثيخو" ملابسهما وأعادانى إلى فراشى وجلسا إلى جانبى، وبعد أن أسقيانى وقشّرا لى حبة كمثرى، انطلقا فى الحديث بينهما عن كيف ستتحول أفروديت، وهل من الأفضل أن تكون هناك شباك أو بدون شباك ظاهرة، وهل يجب أن تظهر أفروديت أكثر عفافًا أو أن تكون أكثر تهورًا، عنيفة أم هادئة، وهل يكون كلامها أبطأ أو أسرع، إلخ. عند ذلك، وربما بسبب حرارة قربهما، المختلف بالنسبة لكل منهما، كنت قد استيقظت تمامًا. كان "بيدرو دى أوثيخو" متحدثًا أكثر إغراء وإقناعًا وهو ما لم يكنه وهو بغير ملابس عندما قال كلمتين أو ثلاثًا ممثلاً لـ "آريس" بشكل مضحك بالنسبة له. كان هكذا، من جديد، عندما كان هو ذاته، جميلاً وساحرًا، ضياء خالصًا فى حجرتى. أما هى، فعلى العكس، فاقدة لبريقها، وأقول، إحقاقًا للحق، إنها، مقارنة بأى من التماثيل الحجرية الممسوخة التى بالمعابد الهندية، أقل قبحًا. لكنها كانت تتلعثم وتعليقاتها غير ثابتة بسبب نظرات حب "أوثيخو"، لم تعد أبدًا أفروديت الجذابة، فطابعها الحزين كان

يسيطر على كل حركاتها وتعليقاتها، فبينما كان "بيدرو دى أوثيخو" إنسانًا يتسم بوهج السعادة، كانت الإيطالية تبدو وكأنها قد تناولت سحابة رمادية ملتحفة بشمس وسماء. كيف لم تُلاحظ سحابة حزنها وهى تؤدى دور أفروديت؟

انتقل حديث أفروديت إلى الإيطالية.

ـ لماذا يا بيدرو لا تنس أفروديت هذه التى لم أعد فى عمرها، وتعد لى دور «أفيس"؟

أجابها "بيدرو دى أوثيخو": "أفيس" لكِ؟

قلت لها: لست فى سنها؟ أنت أجمل امرأة على وجه الأرض.

نظرت إلىّ فى عينى. ثم جذبتنى من ذقنى وطبعت قبلة على شفتى.

ـ شكرًا. لا تقولى لى ذلك مرة أخرى. فتكفى مرة واحدة لأكون مدينة لك. سأحاول رد الدين بأن أروى لك قصتى التى ستسليك...

ـ ليس اليوم، فيجب أن نتركها تنام لتصحو غدًا فى حالة جيدة، فتأكل أفضل. هيا أيتها الإيطالية تعالى معى إلى المطبخ لنحضر لها شيئًا تأكله لو شاءت فى غيابنا.

ـ وماء لو سمحتما لأننى أموت عطشًا طوال اليوم.

ـ ماء وفير فى جرار من نحاس ليبقى باردًا، لا تشغلى بالك.

خرجا ولم يتأخرا فى العودة. تركا الأشياء فقط، ثم ودّعانى ليتركانى هنا أتذكر ما حدث الليلة، بينما أحاول هباء مصالحة النوم.

كم الساعة؟ يهزون كتفى لإيقاظى. أردت أن أقول لهم "لا تحركونى! رأسى تؤلمنى! لم أستطع النوم الليلة"، ولكننى تأخرت عن القدرة على الكلام. أفتح عينى، أولاً، فأرى نائب الملك أمامى يظهره لى شعاع ضوء تركته يسقط عليه ضلف النوافذ. ليس وحده. يرافقه "ماريانو باسو" رفيق حملتى. أندس فى سريرى منزعجة من وجوده ومن وجهه العابث:

- كيف حال معاليكم؟

أدركت القول متلعثمة، وأنا أرتب شعرى محرجة من مظهرى غير المهندم لمرضى واستيقاظى توًا.

لم يجبنى بشىء. يحمل فى يديه كيسًا من القطن القاتم مربوطًا بحبل مراكب. يضع الكيس فوق سريرى، وكرد وحيد، يحل ربطة الحبل ويدحرجه ليفرغ ما فيه فوق الدثر قائلاً:

- يطالبون برأسك مقابلها.

إنها رأس آدمى مقطوعة بحد سيف، ذات شعر قاتم طويل ومسترسل. إنها رأس هندى.

أستمد القوة من الضعف لأصيح: بالله عليك! ما هذا؟ إنه تأثير كريه ومزعج. ازداد بإخراجها من الكيس وتركها تنزلق على سريرى.

- يقولون إنها رأس "يوجيى". هل هذا صحيح؟

أؤيد بلا يقين. فأنى لى بمعرفته؟ لم أره بالمرة. فعندما شَرّح لحمى ومَزّق ملابسى، لم تقو عيناى، رغم كونهما مفتوحتين، على الرؤية. لا أتذكر شيئًا. ولكنهما قالتا له إنه كان وسيكون "يوجيى". ولماذا لن يكون هو؟

- إن "ماريانو باسو" يعرفه أكثر منى.

قال "باسو": نعم إنها رأسه.

أضاف نائب الملك: جاء معه هذا.

يفرد "ماريانو باسو" أمام عينى كتابًا غريبًا. ليس مخيطًا وإنما مطويًا، مرسومًا وليس مكتوبًا ولكنه كتاب، ومن يساوره أدنى شك فى هذا؟ أرى مرسومًا فيه الحصار الذى نُصب لنا والمعركة بين الطرفين، كما أرانى مربوطة فى الحصان ودماءً مرسومة فى جروح بعض الإسبان، وأرى عدم خروج حتى الماء من جسدى المفتوح. ثم أرى صورتى مكررة عدة مرات بعلامات لا أفهمها حتى أجد فى النهاية بعض الجمل.

- احتفظى به. أطلعى "بيدرو دى أوثيخو" عليه. أخبريه أننى لا أريد سماع أى شىء خارج هذه الحجرة. آمر بالصمت. ألا يعرفه أحد وبالذات ألا يكتبه. يجب نسيانه.

يخرج مع "ماريانو باسو". ويترك أيضا الرأس حيث سقطت من الكيس فوق دثر سريرى. ماذا أفعل بالرأس؟ فأنا واهنة، وخدمى ممنوعون من الدخول، أشعر بالاشمئزاز.

أبقى وحدى معها.

أتفحصها أكثر. يزول عنى الخوف منها.

أتحدث إليها، سأحكى لها فقط بعض الأشياء. أرغب فى حفظها فى كيسها ولكن نائب الملك ألقى به بعيداً عن متناولى. وبلا وعى منى أغط فى نوم عميق بدون أن أتناول حتى الماء.

أشعر بالعطش إلى النوم. إن لقائى بالرأس أصابنى بالتيه.

أحلم بأننى قد وضعت طفلاً، وأنه بجوارى. وبدلاً من وجه طفل، أجد له منقار الأفرخ الشره والمفتوح والأحمر المحشو. أستيقظ فجأة. أشرب ماء. أرى الرأس فى بقعة دمها الطازج يلون الدثر.

أتذكر أننى لم أدمَ منذ فترة، منذ أسابيع كثيرة لم تلوث ملابسى دماء الدورة الشهرية. أشهر. منذ تواجدى فى المكسيك. مم صنع جوفى وأحشائى؟ فإذا أراد القدر الآن تحويلى إلى رجل فلا يهم. سأكون من لا يُقهر. سيحتاجون إلى قطع رأسى مثلما فعلوا مع "يوجيى" للقضاء علىّ فحتى المتوحشين لن يجرآوا على أكل لحمى.

إن رؤية الدماء على سريرى مقززة. أبعد بقدمىّ الدثر الملوثة بالدماء. تقع على الأرض بخبطة، الرأس. أظل بقميصى الداخلى الأبيض فوق ملاءة سرير بيضاء بدون غطاء. أنتظر هبوط الليل حتى إذا ما جاءا لعرض ثمرة انكشاف الشمس، يكتسب البياض

الذى أسكنه معناه الصافى الطبيعى وليس ما هو عليه الآن، غمًا وغيهب الخوف.

ليس لدى القوة للفرار. لا أريد أن أبتعد. لقد قال نائب الملك إنهم يريدون رأسى كمقابل ولم يقل "لن أعطيها".

أعيد قراءة الكلمات الأخيرة التى بالكتاب الذى تركاه لى:

"إن لديهم المرأة النائمة.

العذراء التى بلا أى سبب تحميهم وتدمرنا.

فى نومها موتنا!

وفى رقادها دمارنا.

يقظتها نجاتنا.

رءوسنا لن تقوى على الرؤية

إذا ما ظل رأسها فوق جسدها.

سنحرق قرى

كنائس، معابد وأديرة!

فإما قتل كل إسبانى يقترب

من نصل بلطتنا برقبته!

أو هدنة وولاء للملك وسلام

على هذه الأرض مقابل رأسها!".

لشدة رغبتى فى الأمر (وأن أغفو وآكل خبزًا وجبنًا، أصابنى العطش) جاء الليل ومعه الإيطالية و"بيدرو دى أوثيخو". كان يعلم بالأمر فقد التقى نائب الملك فى الممرات الذى أخبره بكلمات مختصرة بوجود الكتاب والرأس وبأنهما فى معزلى، وعليه، فإنه بمجرد أن دخل ناشد أفروديت أن تجلس بجوارى على السرير، وجد الكيس وبدون أن نعلم ما يفعل وبحركة أسفل السرير أعاد الدثر وعثر على الرأس فحفظها فى الكيس، وربط طرفى الحبل ثم نهض واستأذن قائلا إنه سيعود بعد قليل دون أن يقدم أى تفسير أو أى كلمة حول الرأس، وخرج من الحجرة دون أن تعلم أفروديت ماذا أخذ معه وماذا يحمل هناك.

قالت الإيطالية: "حسنًا، لقد وعدتك بأن أحكى لك قصتى. يبدو أن اللحظة قد حانت الآن. لست من سلالة ممثلين. أبى من عائلة عريقة ونبيلة فى ميلان: من هنا كان لقبى الذى أخفيه خجلاً هو "ميلونير". إن الحياة التى أعيشها هنا ووضع العوز والشهرة غير الدائمة التى تؤدى إليها المهنة التى أمارسها هما الخير والشر، الشر الناتج عن اسمى خير عرفته. كنت فى الثانية عشرة من عمرى عندما عرفت الحب. اثنتا عشرة سنة غير كاملة ومعرفة شىء لم أكن أعلم اسمه.

"كان أبى قد استقبل، فى جناح قريب من الخاص بخدم القصر، فرقة من الممثلين المتجولين كانت ستشارك فى عيد ميلان. هذا إضافة إلى تحمل أجورهم مساهمة من العائلة فى الاحتفالات.

"وضع أبى حراسة جيدة لشقيقاتى لعلمه بتهور الممثلين. واعتبرنى صغيرة على الحاجة إلى حمايتى.

"لا أعرف ماذا فعل عندما هربت مع الرجل الذى أحببت لأننى لم أعد بالمرة لرؤيته ثانية. وبعد وقت قصير وقفت على المسرح. وعندما عثر علينا تحدث إلى حبيبى عارضًا عليه الزواج منى، وأنه إذا وعده بعدم التمثيل فإنه سيتمتع، ليس فقط بمباركته، وإنما أيضا بالجهاز الذى يناسب من هى ابنته. وعندما علم أننى قد وضعت قدمى على المسرح وبأن حبيبى ليس على استعداد لتركه، ذهب غاضبًا دون طلب رؤيتى.

"ليس عندى الكثير لأرويه عمن أحببت وغيّر حياتى. علّمنى المهنة واحترامها وبدون أى انتظار، توفى. لم يكن الوحيد: فإن من يختاره قلبى ليكون من نصيبه يميل إلى اللجوء للموت. كان على عائلتى أن تشكرنى لهروبى، فكم من الموتى كانت ستلاقى لو بقيت بجانبها! وتعلمت مع الأيام الاحتفاظ بمشاعر الحب وبعدم إخراج أسرار قلبى للنور، لأنها وهى مجهولة هناك تفقد قدرتها المميتة. تعلمت أيضا أشياء أخرى ولكن ليس عدم الحب والذى ربما كان يجب أن أتعلمه".

بَدأتْ، بمجرد أن نطقتْ هذه الكلمة الأخيرة، فى خلع ملابسها؛ تعجبت بعض الشىء ولكننى لم أشأ التعليق. لقد أرادت الإيطالية أن تتحول إلى أفروديت ربما للتوقف عن قتل الحبيب الذى أحبها. ثم وهى بلا أى ملابس اندست بجوارى فى السرير.

قالت لى: عانقينى، فإننى لا آملك شيئا حيالك، أعلم أن قلبك يمر بتجربة حب.

إننى لم أحب بالفعل بالمرة. بالمرة. رأيت ما يفعله الحب بالناس ولكننى لم أحب بالمرة.

- أفيس، كنت أريد أن أقوم بدور أفيس. قالت وهى تضمنى، وقبل أن أنتبه، أخذت تداعبنى فى الأماكن الأبعد من أن تمس. كم من الوقت؟ كان قميصى الداخلى الأبيض والملاءات البيضاء درعى الوحيد. وحرصها الذى أحسنت استخدامه بعدم أذى جروحى المفتوحة بيديها. على الرغم من أن المكان الذى وضعتهما فيه يعتبر بحق جرحًا مفتوحًا. وهو فى حالتى لا يدمى ولكنه ليس فى حاجة إلى سمة الاحمرار المفرط للتعبير عن أنه الجرح المفتوح دائمًا فى جسد..

فتح "بيدرو دى أوثيخو" الباب. سحبت الإيطالية يدها ببطء من جسدى وأنزلت قميصى متظاهرة بالكلام معى متناولة أطراف الحديث كما لو كانت لم تقطعه بالمرة. أما أنا، فكنت غير قادرة على التظاهر بشىء. لقد عادت الألوان إلى وجهى من جديد.

- هل ما زلتما تتحدثان يا بنات؟ فلنغير الدثر لهذه المرأة أيتها الإيطالية ومهما يكن ما تحكيه لها، فهو كذب بالتأكيد، ويمكن أن ينتظر، ضعى ملابسك لتناول العشاء معها. فقد طلبتُ طعامًا ساخنا ونبيذًا وكذلك دثرًا نظيفة؛ لن تتأخر فى الوصول.

قام كلاهما بإراحتى على الدكة.

وضعت الإيطالية ملابسها بسرعة مدهشة.

بعد قليل دق الباب. تسلمت الإيطالية ملابس نظيفة وعشاءً ساخنًا وأعطتهم ملاءاتى ودثرى لغسلها.

تناولنا الطعام على المائدة، فى البداية كنا نجلس وحدنا أنا و"بيدرو دى أوثيخو" بين وسائد، بينما ترتب هى سريرى جيدًا وهى تغنى بصوت عذب:

"فى ماضى الزمان أنجبت أرض "فستو" طفلاً أسموه "ليجدو". كان أبى مبهم الاسم، طاغية رغب فى أن يكون قاتلى، جلاد على طريقته، قتل الطفلة التى لم تصل إلى القبر. كنت أنا هذه الطفلة. لكى أكون ذكرًا، قبرًا لإنقاذ الحياة، أنذر "ليجدو" القاسى زوجته الحامل قائلاً: "زوجتى العزيزة تنحصر رغبتى فى شيئين، ألا تعانى آلام الوضع وأن تمنحينى ذكرًا يتمتع بالصحة والقوة. وإذا ما صادف وجئت بمولود أنثى فأعيديها مباشرة دون أن أراها إلى غياهب ظلمات الموت". حاولت "تليتوسا" ـ وهو اسم الأم ـ أن تغير فكرته الغبية. ولكن "ليجدو" لا يخضع، تبكى "تليتوسا" ويبكى "ليجدو"، تبكى "تليتوسا" ويبكى "ليجدو"، تتوسل "تليتوسا" ولا يثنيه شىء عن قراره. أولدُ أنثى ويعلنوننى ذكرًا لنزعى من القبر المسبق. أتسمعنى المدن المئة لكريت؟ تنتشر صيحة قلبى. أنا "أفيس"، أنا "أفيس"، "أفيس" هى أنا...".

يقاطعها "بيدرو دى أوثيخو" قائلاً: "لا، لا تسمعك مدن كريت المئة ولا أى مدينة أخرى، وإذا لم تجلسى لتناول العشاء فإن فمك

سوف يتناول دجاجًا باردًا وقاسيًا. ولا تغنى مرة أخرى هذه الأبيات فسوف أغيرها كلها فهى لم تعد تعجبنى".

انضمت الإيطالية لنا.

تابع "بيدرو" كلامه قائلاً: لقد ألقيت الكيس فى جب منزل "دون مانويل دى لا سوسا" الذى استولت عليه محكمة التفتيش. وضع على الباب ختم ويُمنع الدخول لأى شخص لا يحمل تصريحًا. دخلت أنا عبر الفناء الخلفى حيث لا باب ولا أسوار حديدية ولا حراس يراقبون وهو يطل على "الزقاق" المظلم الذى لا اسم له ولا كلاب به. قمت، فى أقل من دقيقة، بالدخول والإلقاء والعروج إلى الشارع.. والجائزة هى هذا العشاء اللذيذ وأن أكون بصحبة أجمل سيدتين فى هذه الأراضى الجديدة...

أكلت، نعم، ولكن ليس كثيرًا. لقد ناسبنى النبيذ. استمتعت بالصحبة. وبعد أن تناولنا العشاء والشراب جيدًا، جلس "بيدرو دى أوثيخو" على دكة الحائط وأجلسنى معه بينما قامت أفروديت وهى مجردة من ملابسها بإلقاء ما كان فى الليلة السابقة وما يحدث، حيث روت حول ما إذا كان "أفستو" قد أعد مخدع "إيرا" و"زيوس" وما إذا كانت أرضية قصره من البرونز وإذا ما كانت لديه مناضد ذات قوائم ثلاث تتحرك ذاتيًا عندما تتجه إلى اجتماعات الآلهة وإذا ما كان يستحق عدم الحصول على حنان أفروديت وما إذا كان الحقير والسكير والعربيد"آريس" جديرًا بحبها لكونه وجيهًا ونبيلاً و...

.. نمت. وعندما استيقظت وأنا مرتاحة فوق الدكة، رأيت "بيدرو دى أوثيخو" فى فراشى عاريًا والإيطالية أيضًا بلا ملابس وهما متعانقان، شعرت عندها بالغيرة.

أيقظت غيرتى "بيدرو دى أوثيخو".

قلت له: صباح الخير.

- صه، لا توقظيها.

بدأ فى وضع ملابسه، جمع ثيابه واقترب من الدكة. وقال لى بصوت خفيض جدًا بينما كان يستكمل إحكام ملابسه:

- لقد نمت هنا لأن على محاولة مقابلة نائب الملك الآن. فمن ـدرى مدى الرعب الذى أصابه عند رؤية رأس "يوجيى"، لقد كان خوفى على رأسك أمس كبيرًا. لنر ما سيحدث. سأقترح عليه السماح لى بأن أصطحبك معى. والشىء الوحيد. إذا ما قبل، هو انك لن تعيشى عيشة أميرة، فأنا لا أملك الثروة ولن يقبل بك فى البيت ابن أخ "أوركيثا" ولا أى من مضيفىَّ المعتادين. وعليه، فإننا سنعيش من عائد العمل أو كما لو لم نملك شيئًا. ولو أننى أميل إلى كتابة شعر للكنيسة ولأعياد القصر..

شعرت بالخجل من غيرتى.

- "بيدرو"، تحدث أنت إلى نائب الملك ولكن، لا أريد بأى شكل أن تبحث عن عمل من أجلى، فهذا غير معقول.

- قد أمارسه لوقت قصير، فسوف يعود قريبًا "أوركيثا" ولا أعرف كيف ستنتهى هذه القصة..

- سيستضيفنا، لا تشغل بالك.

- لن يستطيع إنقاذ نفسه مرة أخرى سواء وجد أم لا من يحل مكانه فى عملية الشنق. كان عليه البقاء فى إسبانيا، لماذا يأتى ويظهر حيث يكرهونه إلى هذه الدرجة؟ سوف آتى. لا توقظيها، فقد ألقينا شعرًا حتى وقت متأخر ليلة أمس.

قلت له بنغمة ساخرة وبغيرة من جديد: شعرًا؟

- نعم.. آه، انتبهى الآن. لا، ليس بينى وبينها أى شىء. ألا ترين أنها تحلم بـ "أفيس"؟ وأنا، ماذا أريد أكثر من أحظى باهتمامك أو اهتمامها. لقد سرقتما قلبى. وأنت أكثر. إن الإيطالية تعرف ذلك. هيا، علىّ الذهاب.

يخرج.

شعرت بأننى أفضل بكثير فيما يتعلق بجروحى. حاولت النهوض واستطعت، كانت الآلام محتملة. تبولت فى المغسلة بلا مشاكل ولأول مرة فى إفاقتى أتبرز، وبلا مشاكل أيضًا. وإذا كانت غيرتى قد أيقظت "بيدرو"، فقد أيقظت الإيطالية غازاتى وروائحى. استعدت بشكل طيب للغاية لتنظيفها. ثم قامت أيضا بالتوجه إلى المطبخ وأحضرت لى غداءً تناولته باستمتاع. يمكننى القول الآن بأننى بصحة جيدة وأعرف أنه خلال أسبوعين أستطيع حماية رأسى حتى لا يبادلونها مقابل عنفهم.

عودة أوركيثا

وصل "أوركيثا" إلى الميناء منذ عشرين يومًا. أدى الخبر إلى ردود فعل متنوعة وقد انتشر حتى شمل كل ركن من إسبانيا الجديدة.

وصل مع الأسطول الذى حالفه الحظ فى الإمساك بـ"خوان أكينز" وهو الاسم الذى يطلقه الإسبان على "جون هاوكينز". فبينما كان "هاوكينز" فى الميناء، الذى عمّه الرعب لمجرد وجوده، فهو لم يطلق رصاصة واحدة ولا أخرج سيفًا براقًا، وهو يعرض أن يشترى بالذهب وبالبضائع مركبًا فلم يكن يملك أى مركب، صادفه وصول الأسطول الإسبانى. كان الوصول منتظرًا فى الميناء ولكنه كان مفاجأة مخيفة بالنسبة للقراصنة الذين لم يستطيعوا الفرار لرسو سفنهم وتفريغها من المدفعية. وفى هذا الوضع بين جبهتين فقدوا النصر. وقد صعد "خوان أكينز" بارجة قائد الأسطول حاملاً فيها فضة وذهبًا ومسروقات وأبحر ومعه ثلاثمائة رجل وهرب هروبًا فيه مخاطرة بين الأرصفة مما جعل مشاهدة هروبه لا تساعد أى

سفينة على أن تتجرأ على مطاردته. أما رجال "آكينز"، الذين بقوا فى الميناء، فقد حاربوا بشجاعة ولكنهم انتهوا بالوقوع أسرى فى أيدى الإسبان وإرسالهم إلى المكسيك لمحاكمتهم حيث تنتظرهم سياج من الخوازيق فى "سان إيبوليتو" أقيمت لردعهم. كل هذا من أجل القول بأن خبر "أوركيثا" جرى كخيط البارود، ليس لعدم وجود خبر آخر يصرف عنه، كان هناك بالطبع، ولكن لكونه كان يسبب قلقًا شديدًا إلى حد القول إن ميتًا فى وسط البلاد، بالمكسيك، يعود عبر البحر، وأن ميتًا هنا قد بُعث فى شبه الجزيرة الأيبيرية. ألم يكن الموت يضرب بنفس الحد على جانبى المحيط؟

فى رحلته من الميناء إلى المكسيك، كان "الكونت دى أوركيثا" كريمًا ومجاملاً وقد قاموا بدورهم بإغماره بالاحتفالات كما لو كان الأمر يتعلق بنائب للملك عند وصوله، حيث حفلات الاستقبال بالزينات والموسيقى. كان القراصنة يسيرون على نفس خطاه تقريبًا لكونهم بلا ركوبة أو عربة، سيرًا على الأقدام شبه محطمين، يتأخرون فى الوصول من بلدة إلى أخرى، بينما الكونت "أوركيثا" يُحتفى به ويقطع المسافات بصحبة أربعة من أجود الخيول. يقال إنه فى إحدى البلدات تصادفوا عند دخولها وأن أعين الناس تحيرت فيما تفعل وأن المساجين مروا هم أيضا أسفل قوس النصر الذى بُنى لـ "أوركيثا" وكان المنادى الذى يصاحبهم يصيح: "انظروا إلى هؤلاء الكلاب اللوثريين أعداء الله"، كان يرفع صوته حتى لا تغطيه أصوات ضربات أسواط الحراس الذين تحرشت بهم خيول عربة "أوركيثا" التى أفسح لها الطريق عبر أبواق تصاحبها أشعار تتغنى بفضائله.

إن نائب الملك يرتعد؛ فقد أرسل له الكونت "أوركيثا" يقول عن بعد إنه يحمل أوراقًا من الملك تدينه لقتله غير العادل ما يوجب عليه المثول أمام البلاط الملكى فى مدريد للمحاسبة. ولأن اثنين من المفتشين يصاحبان "أوركيثا"، يخشى نائب الملك أن يكون الأمر مؤكداً على الرغم من أنه فى كل لحظة يفكر فى كونه لا يعدو أن يكون تمثيلية لمثل هزلى لأنه، فأى كونت "أوركيثا" هو، إذا كان قد مات؟ وأى حسابات يمكن أن يحملها من الملك إذا كان الموتى لا يصلحون حتى فى أن يكونوا مبعوثين؟

لماذا لا يطلب منه أن يقدم له أوراق اعتماده وبيانات الملك لمجلس تفتيش ما؟

فكرة جيدة. يخرج المجلس. يعود المجلس بلا أوراق. الكونت "أوركيثا" لا يريد إرسالها، يقول إنه سيسلمها مباشرة. وفى هذه الأثناء تزداد الاحتفالات به وتزداد هداياه السخية ويوقظ التعاطف معه.

كانت شائعة قد انتشرت فى المكسيك بأن نائب الملك على وشك الرحيل وبأن الملك قد أعطى الأمر بعودته إلى إسبانيا، وبأن الخوف يسيطر على الجميع. يخافون صرامة المفتشين. إنهم مخيفون تقليديًا وهو أمر جد معروف.

أخذ نائب الملك يتساءل حول ما إذا لم يكن "أوركيثا"، ولم يكونوا مفتشين؟

إذا لم يكن هو ذلك، يتم الرد. كان على درجة من اليأس إلى درجة أنه لجأ حتى إلىّ طالبًا النصح. أقول "حتى إلىّ" لأننى فقدت

كل شىء بين استمرار نائمة عند مغادرتى المكسيك وجروحى التى لا تدمى ولا تندمل ورأس "يوجيى" والتهديد (عن هذا لا شىء مؤكد لا شىء يعرف، يسود الهدوء التام ولا نعلم وجهة الهنود المتمردين، ولكن لا بد أنهم بالفعل متمردون لأننا لا نراهم)، وقربى من "بيدرو دى أوثيخو" الذى لشدة قربه من "أوركيثا" يستحب وجوده هذه الأيام فى القصر، إن الإيثار الذى أظهره نائب الملك نحو شخصى وآرائى يبدو أنه قد ذاب فى اللاشىء.

وأنا، ماذا علىَّ أن أقول له عن أوركيثا؟ إن ما سبق وسألنى عنه كان حول ما إذا كانت الرأس المقتلعة هى لـ "يوجيى"، وهو رجل لا أعرفه. والآن يسألنى عن "أوركيثا" ولا أستطيع أيضا أن أقول له الحقيقة، قد أضع "بيدرو دى أوثيخو" فى مكانة مخيفة، وأنا أيضا، وحتى لو لم تعنينى نفسى فإن "بيدرو" صديقى. أدين له بالحماية والإخلاص.

ومن جهة أخرى، فإن نهايته تقترب. ولا أقول هذا لشدة مرضه فقط حيث لا يغادر الفراش. فأى نوع من نواب الملك هذا الذى لا يعرف كيف يتعرف على أعدائه؟ إنه يسأل: "هل هذا هو الكونت "أوركيثا"؟ ويجيب خطأ: "لقد قتلت الكونت أوركيثا". ويسألنى وهو يخافه ويخافنى: "هل هذا يوجيى"؟ راغبًا فى تسليمى (سيفعل ذلك متى علم كيف ولمن) ولا يتنبه إلى أنه يمتلك النصر ورأس العدو بسبب ضعفى الذى ينكره ويخافه. يريد طردى من القصر ولا ينتبه إلى أنه إذا فعل فسوف أنضم إلى الكونت "أوركيثا" (الذى يعيش

على ما يرام! أعرف أنا ذلك فقد حللت مكانه) ويمكن أن يقوم أعداؤه الهنود عند رؤيته بلا الدرع المخيف المكون من الماء الذى يجرى بين عروقى وبأنهم سيتعرفون عليه عبر شىء ما كما يتعرفون على أنفسهم، فينطلقون مباشرة لمهاجمته. من يدرى، بما أنهم قد صاروا غير مرئيين، إذا ما كانوا هنا على مقربة ينتظرون فقط أن أبتعد عنه من أجل اقتلاع رأسه ووضعها فى كيس وربطه بحبل وإرساله إلىَّ مع كتاب مرسوم بأيديهم الحكيمة... إن الهنود فى هذه المدينة كثر، فهناك عشرة هنود على الأقل مقابل إسبانى واحد. عن جنسهم، ماذا يمكن أن نعتقد؟ لا نعرف شيئا عنهم ومن الفطنة مخافتهم أو الانضمام إليهم. كل شىء يقال ويعتقد عن الهنود وكم هى أشياء متناقضة للغاية بحيث يكون من الأفضل عدم التفكير فيها. مخافتهم، أكرر، هو ما يجب فعله. أو أن تكون منهم. ماذا يقال عن جنس يروون عنه أنه خلال طقوسهم المرعبة فى معابدهم، عندما يقومون بحجر مشحوذ باستخراج الأحشاء لشياطينهم، فإذا بالمرأة التى شقوا جسدها وأخرجوا قلبها قد نهضت وسارت عدة خطوات وقالت بلغتها "أتألم بشدة"، قبل أن تخر؟ إن جنسًا يلد إنسانًا بهذه القوة تجب مخافته، لو قلنا ذلك بفطنة. وأنا، ربما أكون أيضا ابنة هذا الجنس؟ فأنا الفرنسية الوحيدة التى تحمل ماءً فى عروقها، امرأة الحياة المصطنعة، التى لا تستطيع الحياة سوى فى المكسيك.

الوقت ليل. يلقون بالحصى على ضلف نافذة الشرفة لجذب انتباهى. انتبهت منذ دقائق، فأنا مخمورة بعض الشىء (ماذا عساى

أن أفعل محبوسة هنا؟ أشرب، أشرب لكونى لا أملك سيفا ولأننى لا أملك إلا أن أضع ملابس امرأة ولأننى لا أستطيع العمل مع نائب الملك فيما يتعلق بأسرار حكومته، ولأننى لا أستطيع الخروج من القصر، فأى خيط طليق يثير نائب الملك وأنا لا أعلم قدر قوتى لمواجهته)، ولكننى أفتح ببطء وحرص الضلف. إنها الإيطالية:

- أسرعى يا "كلير" فسوف نرحل. احملى ملابسك على ذراعيك وضعى دثاراً على كتفيك وأسرعى إلى هنا. إن نائب الملك قد عرف أنك حللت مكان دون أنريكيه، هيا!

لم تأت وحدها ولم أتوقف لأرى من يأتى معها. أطيعها بشكل أعمى، بأسرع ما يمكننى.

.. استعنت ببطانية مطوية تحت بطانيتى لتحل مكانى فى الفراش وتمنحنى دقائق قليلة أخرى للهروب. أتناول قبعتى وأطفئ الشمعتين.

كان فى انتظارى، أسفل شرفتى، سلة من الحجم الكبير التى يطلقون عليها هنا "ماكوكو". ألقى بنفسى فيها، يغطوننى، (أسمعهم) يغلقون ضلف النافذة وينطلقون سيراً بى. أعرف من خلال التأرجح والإجهاد السابق له أننا ننتقل داخل مركب. أسمع أصوات "بيدرو دى أوثيخو" والإيطالية والهندية ذات اليدين الدافئتين تلك التى صنعت سائلاً سميكًا من دماء شرايينى لإنقاذ حياتى. ينزلون، وبعد أن تنسحب المركب بمجاديفها يكشفون سلة الماكوكو التى يخرجوننى منها لأنطلق فى السير. حملت أنا والهندية السلة الضخمة وسرنا

خلف "بيدرو دى أوثيخو" والإيطالية. ما اسم هذا الحى؟ فحيث أتدحرج توجد قنوات ماء وهو الشىء الوحيد الذى أراه فى هذا الطريق المتعرج، وإذا كانت المكسيك مظلمة فى الليل، فإن هذا الحى شديد الظلمة، لا بد أن مياهه يشوبها شىء يحول دون أن تعكس ضوء القمر. لا توجد هنا طرق مرصوفة، بل أزقة وعرة. طرقنا على باب. فتحت هندية. تتحدث مع ذات اليدين الدافئتين. ثم يبدو الاطمئنان عليها وتخرج معنا. تقودنا إلى باب آخر بمنازل بالأعلى، تدفعه دون استئذان، توجهنا. نعبر الحجرة إلى الفناء لندلف إلى شونة هائلة، وهناك نستقر أعلى فى التبانكو بكل ما معنا والسلة الكبيرة بملابسى. ويخبروننى:

- استطاعوا عبر التعذيب الحصول على اعتراف "البار ديل كاربيو" شريك "دون أنريكيه". إنه يعلم الآن أنك فرنسية.

- لقد كان يعلم ذلك، لقد توهمنا به، أتتذكر يا بيدرو...

- نعم، نعم، إن ما يعلمه الآن هو أنه كان عليك التصرف مع المهربين والقراصنة الذين أبدلوك به، وأن "دونيا أينيس" قد قامت بصنع الدواء الشافى الذى مكنك من إنقاذ نفسك من الشنق، إنه يعلم كل شىء. سيطاردنا الآن. إن إنقاذ حياتنا مرتبط بموته...

قاطعت الهندية:

- نعم سيموت.

ـ حسنًا يا "دونيا أينيس"، أنت تعتقدين ذلك، إنه بموته ستسهل كل الأمور لأنه لم يسمح بقيام أى موثق بتسجيل الاعتراف. لقد قرر ألا تظهر "كلير" فى أية وثيقة.

ـ كما لو أنه بذلك يستطيع أن يمحونى.

ـ نعم يمحوك، لا يجب أن يعرف أحد عنك أبدًا سوانا، الذين ترينهم هنا، و"يوجيى" بعض الشىء وعشيرته ورجاله ومن يتبعونك، فإن "ماريانو باسو" وهم، سيقومون فى وقت قصير وهم منتشون بالأموال التى أعطاها لهم نائب الملك، بتحطيم أية ذاكرة.

قالت الهندية ذات اليدين الدافئتين من جديد: سيموت.

ـ وأنت، تدعين "أينيس"، أليس صحيحًا؟ لماذا أبيت تماما أن تخبرينى بهذا؟ ولماذا طلبت ألا يخبرنى به أحد؟

ـ لأن سيادتك...

ـ كان معلوم أننى لو وضعت ملابس إسبانية كنت سأحظى فى نظرك بالاحترام، أما الملابس الهندية فجرأة علىّ ومعاملة سيئة.

ـ إن سيادتكِ لن تموتى أبدًا وأنا لا أريد أن تعرفى اسمى لكى تتركينى أموت فى سلام. إن سيادتكِ لن تحفظى شيئا فى صمت القبر. لا يمكنكِ الموت. وإذا ما شربتِ من الماء الذى أعطيه لكِ لن تشعرى بالضعف عندما يضربونك. ولكن تناوليه بحرص وبعناية إنه الشىء الوحيد الباقى من الزمن الماضى...

ـ كفى، كفى، كفى ـ تدخلت الإيطالية منزعجة ـ كفى "دونيا أينيس"، لا تقولى حماقات.

ـ ليست حماقات. هذه المرأة لا يمكن أن تموت. لقد أغلقت بابها الذى يفضى إلى عالم الموتى.

سأل بيدرو: وإذا أخرجتها من المكسيك، ماذا يحدث لها؟

ـ إذا قمت سيادتك بإخراجها من "تميشتيتان" لن تموت. ستنام فقط طوال الوقت الذى ستكون فيه بعيدة عن هنا. يومان أم قرنان.

قامت الإيطالية وهى منزعجة ومندفعة والشىء الوحيد الذى استطاعت تحقيقه هو الحصول على ضربة قوية بالرأس إثر اصطدامها بالكمرة التى تدعم سقف الشونة حيث جئنا لنختبئ ونجد ما سنفعله.

طلبتُ من "بيدرو" الرحيل بدونى، أن يتركنى ثم يعود بعد ذلك. ذهبت ذات اليدين الدافئتين، "أينيس"، إلى قرية الهنود حيث يعيش أبناء عمومتها وإخوانها وأبناء إحدى شقيقاتها المتزوجة من شيخ قبيلة هناك. والإيطالية تعمل بالقصر. بقيت أنا وبيدرو فقط مختبئين كالحمص الجاف. والماء المحفوظ فى جرار من الطين.

ما عدنا ننتظر مساعدة "أوركيثا"، فقد روى لنا أنه بعد أن طلب منه مرارًا أوراق اعتماده وأوراق الملك وهو يرفض، تأكد الملك بالفعل من أنه منافق وعندما وجده بدون المفتشين الذين سبقوه، اعتبره من رجال القرصان "هاوكينز"، ولأن هذا كان مستحيلاً قام بخلع حذائه وجعله يسير جلدًا نحو المكسيك، ونظرًا للتعاطف الذى كان يتمتع به هنا وهناك، جعل قطع رأسه يتم ليلاً تاركين بجوارها كتابًا على العرف الهندى ينسبون فيه عملية الاغتيال إلى "يوجيى"

بحيث تكون لديه الذريعة ليمارس، فى أكثر من بلدة للهنود، عمليات انتقام وعنف وفى نفس الوقت ينجح مع المفتشين الذين مثلوا أمامه، فمن أجل هذا يكون من المناسب أن يتكون جيشه من الجبناء لإرهاب وسوء معاملة العزل وهو ما يستمتعون ويتلذذون به، بل ويعتقدون، إضافة إلى ذلك، أنهم يقدمون أرواحًا أسيرة لربهم الذى لا يشبع.

اتخذ "بيدرو دى أوثيخو" قرارًا، وهو أن يحملنى معه إلى "ريال دى ميناس" حيث سيستقبلنا صديق مخلص هناك. لقد أقنعنى. وعند استطاعته، سوف يعيدنى وسأستيقظ وسأتزين كيفما أشاء. إن التغيير يسعدنى، لا يهمنى بالمرة ما أنا عليه هنا. وعلى الرغم من أن عينى لن تكون قادرة على رؤية "بوتوسى"، إلا أن جسدى سيسافر عبر هذه الأراضى، وسأكون لدى عودتى شخصًا آخر.

إذا مرت سنون طويلة فلا مشكلة فى ذلك. ستحدث معجزة زوال الجمال عن الإيطالية وألا يأسر "بيدرو دى أوثيخو" أحدا بطلعته؛ أما "أينيس" (وهى إلى حد ما أساس ما أنا عليه) فستكون بسبب العمر قد ماتت.

ولكن حين قلت هذا لـ"بيدرو دى أوثيخو" أجابنى بألا أبالغ وبأننا سنعود بعد وقت قصير، وأن "أينيس" محقة، فنائب الملك سرعان ما سيموت، فصحته ليست بخير وقد تدهورت نتيجة المشكلات والهموم. يقولون إنه لم يستطع مغادرة الفراش وأنه بين أيدى الأطباء، بينما المفتشون يعملون على راحتهم. قريبًا، قريبًا يموت وسأعود أنا وأضع ملابس الرجال وأجد السبيل إلى جعل "بيدرو

دى أوثيخو" ثريًا لكى يعاود "أفروديت"، فينتهى من كتابتها وأستطيع مشاهدتها وبعدها يخصص ساعاته فى كتابة روائع من الإبداعات لبهجتنا وتسليتنا.

قلت هذا لـ"بيدرو دى أوثيخو" فأجابنى بكدر: "حتى لو كتبتها لى ولك فقط فإنها لن تكون للبهجة والتسلية، لقد قلت لك إننى أبحث عما يجعل الحجر والنجوم وأفرع وجذور الشجر تتكلم؛ أريد أن أجد فى كلماتى رشدنا، أن أكتشف من خلالها.." قاطع حديثه: "لا معنى لهذا... لا يجب أن أفوز به إذا كان علىَّ شرحه لك...". وعاد إلى قطع حديثه.

استطاع توفير مطيتين. ودفنًا جرار ماء الخاصة بصحتى فى فناء البيت بعد استئذان المرأة التى أخفتنا. حمل "بيدرو دى أوثيخو" معه حبلاً للوثاقى. خرجنا فجرًا باتجاه "ريال دى ميناس" التى يصفها بكل سعادة كما لو كانت شوارعها مغطاة بالذهب والمنازل مبنية من أحجار كريمة وياقوت. إننا نتجه نحو "بوتوسى".

سأنلم أنا. أتخيل آخر ما سوف تراه عيناى وأداعبه: سماء زرقاء، سحابة ما تتلألأ فى بهائها المشمس، قمة شجرة. هذا كل شىء. بعد ذلك سواء فتحت عينى أم لا، سأكون عاجزة عن أن ألمح الضوء وسماع الكلمات والشعور بالبرد أو الحر أو الدفء.

الوداع يا "بيدرو دى أوثيخو"، الوداع. إننى أودعك. فغدًا أعجز عن فعل ذلك. أعرف أننى سأعاقر كل شىء بالعين والأذن واللمس، بحرص، خشية ألا أستيقظ أبدًا، خشية أن يمنعنى شىء من العودة إلى هذه المدينة الغريبة المشيدة فوق بحيرات وقنوات، ذات الطرق المرصوفة الواسعة والقصور العظيمة. وداعًا يا "بيدرو دى أوثيخو"، وداعًا.

بيدرو دى أوثيخو

لا أملك الوقت لشرح الأسباب العديدة التى منعتنى من إعادة "كلير فلورسى" إلى المدينة التى تعيد لها الحياة. لا، إننى مريض ومن الصعب شفائى، هذا الفراش سيكون قبرى.

تركت "كلير فلورسى"، المرأة التى أحبها، نائمة، ليس بعيداً عن هنا (عشرون دقيقة سيراً على الأقدام). تركتها راقدة فى جنة. عيناها مفتوحتان وأظن أنها يمكن أن تبصر شيئا أو أن شيئا من هذا سوف تتذكره عندما تستيقظ.

ولكننى لا أعتقد أن بإمكانها الاستيقاظ. فمن ذا الذى يأتى على باله نقل جسد بلا حراك إلى المكسيك؟

أما نائب الملك الذى خرجنا فراراً منه، فقد توفى بعد قليل كما تنبأت "أينيس" التى أرسلت فى طلبها لكى تحمل معها "كلير فلورسى" لدى عودتها. ولكنها لن تستطيع المجىء، كما قيل لى، لأنها ماتت منذ أربع سنوات. لم أستغرب موتها فلم تكن شابة منذ عشرة أعوام.

أرسلت أيضا فى طلب الإيطالية وعليه أعلم أنها لم تخرج من السجن حيث دفنتها محاكم التفتيش. ولا أعتقد أننى أستطيع الوصول إلى "ماريانو باسو"، فلا بد أنه كان يقوم بمظلمة ما حين مات بسلاح العدل. ولو أن هناك من يقول إنه مات بسبب صممه، فعندما سألوه "عاش من؟" أجاب "ماريانو باسو" ولهذا اخترقته رصاصة.

لا أظن هذا، فعلى الأكثر قد يكون قد تلقى رتلاً من الضربات.

أقول فقط إن آخر شىء حال دون إرسالها إلى المكسيك كان، أولا، عدم حرصى على ذلك، كان يجب أن أتركها قبل ذلك بوقت كاف ولكننى رفضت لتكون بجوارى. وثانيًا، لأن بعض أبياتى فاض بها ما كانت تعوزه عروقها، الدماء، لأننى وأنا أمدح موت السيد المسيح وبعثه، قلت إن قطرات الدم التى سقطت من الصليب قد اندمجت فى الجسد المتجلى وقد أدى هذا التفصيل إلى غضب محكمة التفتيش التى أرسلت إلىَّ مكتوبًا توصينى فيه، حتى لا أخضع لاستجوابات تكون بالتأكيد مؤلمة للغاية، بعدم الكتابة بالمرة طوال حياتى واستخدام الأناشيد الدينية البندكتينية فى الكنيسة خلال بعض الطقوس الدينية وأن أظل على بعد أكثر من تسعة فراسخ من المكسيك (المكان الوحيد الذى تستطيع فيه "كلير" العودة إلى الحياة) وقد أوفيت لمدة اثنى عشر شهرًا، ولكن حرمانى من الكتابة أصابنى بالمرض فى العظام والنخاع، وها أنا هنا أعانى من شدة المرض لا أستطيع الوقوف كما لو كان "يوجيى" بنفسه جاء وطعننى.

أفكر فى "كلير" ويسيطر علىَّ الحزن. فهى ليست ميتة وبسببى ستظل نائمة لقرون، وستظل قصتها بلا نهاية. كيف لى أن أعالج ذلك؟

إن كل ما أستطيع فعله، إلا إذا وقعت معجزة (وهذا يعنى: عودة صحتى لى أو أن يظهر فى حياتى صديق، الأول أكثر احتمالاً عن الثانى، فصديق الفقراء إنسان لا وجود له)، هو حساب كيف كانت ستنتهى حياة "كلير" إذا كانت قد عادت بنفسها إلى المكسيك، حسب ما يتوافق وتفكيرى وحدسى. هذا ما سأفعله حتى يأتى الموت، الذى أشعر بدنوه، ولأنه خاص بى (فهو موتى) ويشبهنى، فإنه يتقدم ببطء وضعف مثلى، بعثرات، مقاتلاً مزاجه الأخرق والمريض محاولاً لمسى، وعلى الرغم من قربى الشديد منه، فإننى أبدو له بعيداً كالصين. يداوى القدر ضعف موتى بزيادة ثقله الذاتى وكالبقعة التى تزعج الورق سيقع هو علىَّ... وفيما يحدث، هو هنا:

خاتمة "كلير"
الجميلة النائمة فى الغابة القريبة من "بوتوسى"

شيخ وفقير ذو عقل يابس أكثر منه رطب وجسم رطب أكثر منه جاف نتيجة المطر، يأتى "بيدرو دى أوثيخو" لإيقاظ "كلير فلورسى" فى الغابة التى تنام فيها نتيجة التعويذة التى أنقذت بها "دونيا أينيس" ـ الدجالة الهندية، بعظة فريدة ـ حياتها.

وهى على هذا الحال من النوم، لعدم وجود قوة بشرية تستطيع إيقاظها، يحمل" بيدرو دى أوثيخو" "كلير" ويربطها فى مطية وعلى الرغم من ضعف عظامه، ينطلق فى طريق العودة إلى المكسيك.

(عجبًا، لماذا تسببت فى أن نخرج للسفر فى يوم ممطر دون وضع اعتبار لمرضى بالروماتيزم؟ لكن ليس هذا وقت العودة إلى البداية، فلا ثانية هناك لإضاعتها. هيا إلى الأمام).

فى اليوم الرابع من الرحلة، حيث كانت مطاياهم سريعة ولم تستلزم الراحة، ولم تكن تأكل تقريبًا (آمل ألا تتأخر أكثر عن الوصول)، كانا مشرفين على المكسيك، وتستيقظ "كلير" قائلة:

ـ شكرًا يا "بيدرو" على رعايتى، إنك فارس وابن صالح لجاليقيا ومشرّف لأصلك. أهبك قلبى إلى الأبد.

ثم، وهى تلقى بنفسها من مطية إلى أخرى بخفة بهلوانية، تقع "كلير" بين ذراعى مذيبة جمود انتظارى بلمسات حب دافئة. يبدو أنها لم تنتبه إلى مرور خمسة وعشرين عاماً وأننى قد صرت شيخًا...

تتصرف بلا حذر وتجبرنى على النزول من فوق المطية وأن أستلقى معها فى الطريق، لا، لا، لا، بجانب الطريق قليلاً، الذى، على الرغم من كونه متربًا، ما إن مالت بجسدها عليه حتى غطى جسدها فراش من الأعشاب الخضراء الرطبة، زكية الرائحة وناعمة ومجدولة تستقبل عناقنا مسرورة. إننى أحبها باندفاع الشباب وهى تقول لى أكثر من مرة "أحبك! أهبك قلبى إلى الأبد!" وجملاً أخرى بنفس العذوبة وأكثر جرأة، لا أستطيع تكرارها هنا حياء واحترامًا لشخصها.

ثم أكملنا رحلتنا ممتطين حتى قابلنا من كان فى الزمن السابق سكرتيرًا لأحد نواب الملك، وقد تعرف علينا فور رؤيتنا، دعانا للانتقال إلى عربته وهو ما تقبلناه بسرور تاركًا لخدمه مهمة الاعتناء بمطيتينا. أشكره كثيرًا على ما فعل، فلم أعد شابًا وقد أضنانى الحب، وهى، على العكس، مستيقظة لتوها من نوم طويل، نشيطة للغاية كما لو كانت قد قضت خمسة وعشرين عامًا فى راحة.

لم يستغرب السكرتير السابق لنائب الملك شبابها. شرح لنا الألف منصب ومنصب والتعيينات والألقاب التى يتمتع بها، فهو:

ماركيز "خيبراليون"،

كونت "بلانكاثار" و "بانياريث"،

فينكوت بلدة "القوثير"،

سيد بلديات "كابيبا" و"كوريل" و"بورغييوس".

كل هذا. أشك فى أنه جعلنا نصعد عربته ونسافر معه ليجد من يزهو أمامه لأنه كان مثل طاووس منتشيًا بغروره.

سألنا: أترون تلك الأراضى؟ وهو يشير إلى حيث جانب الطريق حتى الأفق البعيد. إنها ملكى، كلها ملكى. ألا تصدقوننى؟ فلتسألوا هؤلاء الفلاحين.

ينادى امرأة قوية البدن وجيدة التغذية ومتباهية، بيضاء كالزنبق ما عدا خديها الضاربين إلى الحمرة: هيه، أنت، بينما يطلب الأمين السابق وحامل الأسماء والألقاب اليوم، يطلب من الحوذى أن يوقف السير ليسألها: لمن هذه الأراضى؟

- للماركيز دى كاراباس!

آى، عفوا! تحضرنى قصة ترتبط بهذا الوضع، فالذين يزرعون الأراضى لا يتمتعون ببنية قوية، بل يقتلهم الجوع وهم يسيرون كخرق قماش يعبث بها الريح وهم ليسوا بيضًا، إن الهنود هم

وحدهم الذين يعتنون بالأرض والمناجم التى تثرى الإسبان وأبناءهم فى المهجر.

والحقيقة أنه على الرغم من اختيال النائب السابق وغروره بما يمتلك من ألف كنز وكنز مقارنة بعدمى (ربما لإغراء الجميلة "كلير")، فإنه لم يتصور نفسه كاراباس فقام بإطعامنا ورعايتنا بكرم حتى أودعنا فى قلب المكسيك ذاته، المدينة إلى تحتاجها كلير لتحيا.

كل شىء يبدو متغيرًا. وعندما تلاحظ "كلير" حيرتى، تمسك يدى وتقول لى:

ـ اهدأ، إنها طبيعة المكسيك وستظل هكذا دائما، فهذه هى متعتها، أن تدمر ذاتها لتبدو أخرى غيرها. لن تتخلى أبدًا عن هذا العيب.

وأنت يا "كلير"، كيف تعلمين الكثير أم إلى هنا تتحولين معى إلى امرأة عالمة؟ لم يكن لدى الوقت لسؤالها. فالموت يزحف نحوى بتبلد. لا أدرى من أين يستمد القوة ولم لا ينهار ويتركنى، ولكنه يتمكن بشكل ما من امتصاص القليل من القوة التى يحتاجها ليتحفز للاقتراب.

ثانى ما طلبته منى " كلير" هو أن أصحبها للبحث عن ملابس رجالية. شابة جميلة، أحافظ منذ خمسة وعشرين عامًا على بهاء جمالها لأجدنى أهرع بالكاد لإخفائها... أستسلم نتيجة وعدها بأن تكون لى ليلاً.

(مسكين يا "بيدرو دى أوثيخو"، كم ذللت نفسك لتعطى هذه النهاية للمرأة التى أحببتها، أنت من أوقف هذا بإرادتك الخاطئة! هل هذا لأن جسدها الشاب كان الشىء الوحيد الحقيقى الذى بقى لك من الحياة؟ فلم يتبق لك بعد مكيدة دماء المسيح وسنتى السجن اللتين عشتهما فى إرهاب محكمة التفتيش وهو ما لم أعلنه أبدًا وكأنما بذلك أستطيع محوه؟ أكنت تعرف أن الشىء الوحيد الباقى من ذاتك ومما كنت، كان تأمل جسد "كلير" الساكن؟ لهذا أخّرت عودة الحركة إليه حتى جاءت اللحظة التى لم تستطع الاستمرار فى ذلك لأن قدميك لا تطاوعانك ولا تمنحك رئتاك الهواء الكافى لتحمل خبب المطية).

ولإلباسها ملابس رجالية قمنا أنا وهى بمهاجمة رجل مع هبوط المساء، كان إسبانيًا جيد المظهر كنا قد تابعناه منذ فترة. انتظرنا حتى صار أمام منزل "دون مانويل دى لا سوسا"، وهو الذى ألقيت فى بئر به رأس اليوجيى، التى لم تقم محكمة التفتيش بفعل شىء حيالها سوى تركها لتهوى دون الاستفادة منها. أجبرناه على الدخول إلى الفناء دفعًا. أخلعناه ملابسه وألقينا به فى البئر الذى أصبح به الآن رأسان وذراعان وساقان.. إلى ما سينتهى به الأمر، فبوسعه، بهذا الكم من الرءوس والأعضاء، حتى السير أو العناق!

تضع كلير الملابس الرجالية وتقول لى:

"الآن تأتى بالفعل لحظة انتظارك، اتبعنى".

أنتظر، نعم فعلت، وتبعتها، فقد كانت قد تغيرت فى المكسيك ليس فقط الشوارع والمبانى، بل لم يكن هناك نفس واحدة نعرفها أو

تعرفنا، لا شيء أبشع من الفقر. ومن كان له أن يحييني ولم يبق منى سوى رزمة من عظام مغلفة بجلد؟ لا النشاط ولا النقود التى كانت بين يدى لإنفاقها مع الأصدقاء ولا روح الدعابة التى كنت أتمتع بها، لا شيء. أما كامرأة، وهى ما زالت شابة، كان يمكن لى أن أجد لـ "كلير" مكانًا مناسبًا في القصر بلا مشكلات ولكن بملابس الرجال وبشكل أنيق، من كان سيضمها لخدمته؟ هكذا كنت أفكر عندما كنت أرى "كلير" تدخل بيت "الكونت أوركيثا" الذى إن لم يكن للتبول فلا أدرى لم تدخله، فابن الأخ لن يعطينا سوى ثلاث ركلات، وثلاثا أخرى من زوجته "مرثيديس"، ومع ذلك لا أمل فى العثور عليهما هنا، فعندما كنت فى السجن وأنكرت ذلك، عبرا كلاهما المحيط للاحتفال بموت أمه الذى جعله أغنى من أملاك عمه الزراعية.

ولكن بما أنها تقول لى "انتظر واتبعنى" (ألا يتعارض ما تقوله، فالذى ينتظر لا يستطيع متابعة خطوات أحد؟) (على الرغم من تعارضهما، أطيعها)، أدخل القصر مما كاد يوقعنى ميتًا، لأن الموت (من يدرى على أى حيل يصدق) سبقنى وإذا لم يكن التحميل على عظامى عملاً قبيحًا للغاية ومؤلمًا يؤدى إلى تأخيرى ويجعلنى حذرًا بإفراط، فلا أراه هناك واقفًا مما جعلنى أتفاداه سيرًا على الجانب الآخر من البوابة، فهو، لكونه بطيئا مثلى، (فلسبب ما موتى يخصنى)، ليس لديه الوقت ليمنعنى من الدخول، لأرى هناك الخدم المخلصين لـ "أوركيثا"وهم فى غاية التأثر ما إن تعرفوا على "كلير" إثر مجيئها (والذى أظهرت فيه أنها امرأة تحت قبعة وملابس

رجل)، ويحيطون بها بسرور وكم من الضحكات تسر الناظرين إليهم.

أقمنا هناك. كانت "كلير" تتظاهر أمام الإسبان بأنها مبعوث ابن أخ الكونت وهو الآن الدوق وتزلفات أخرى، قائلة لهم إنها جاءت لبيع جزء من الممتلكات. وتقوم بذلك بالفعل بذكاء جعلنا أثرياء. لدينا المال والخدم والمنزل والملبس وسرية صغيرة مسلحة شكلتها "كلير" من الهنود المهرة فى استخدام السلاح. لا أدرى ما تحمله لنا "كلير" أيضا فى جعبتها، فأنا لا أتابعها فى انهماكها اليومى، فيكفينى ما أعانيه من تعب لتثبيت نظرى حيث موضع قدمى حتى لا أجد الموت فى انتظارى هناك.

اشترت "كلير" بأموالها حرية الإيطالية، الممثلة الجميلة التى استطاعت يومًا ما أن تكون أفروديت ذاتها. وأتساءل، هيهات، فهى الآن قبيحة إلى درجة الرعب لدى رؤيتها، فقد أصبحت فى نحافة عصا بلا رشاقة وتجاعيدها تفوق جسدها.

ولكى تخرج، كان الشىء الوحيد الذى عليها فعله (فكما ذكرت، قامت "كلير" بدفع ثمن حريتها) هو أن تتلو بصوت مرتفع صلاة توبتها. لن أقلدها هنا. فأى شخص يمكنه تخيلها، فكما هو على الإيطالية العجوز ذاتها، فإنه من الصعب أن تكون جميلة كما كانت وأن يدوم ذلك لعدة سنوات. أنا أتخيلها عجوزًا إلى درجة عدم رغبتها فى أن نراها. بعثت برسالة قصيرة تحمل شكرها إلى "كلير" واعتذارها عن رفض رؤيتها تقول فيها: "تذكرينى كما كنت. أعلم

أنك كريمة، أتوسل إليك، من فضلك، أتوسل إليك، لا تطلبى رؤيتى. إننى أفتخر بمعرفة أننى أمثل الجمال فى ذاكرتك وهو ما جعلك تدفعين ثمن حريتى من أجله. لا تقضى على آخر كنز بقى لى، إن ثروتى الوحيدة هى معرفتى بأننى ما زلت جميلة بالنسبة إليك، وأن أظل هكذا فى ذاكرتك".

وعند الليل، يدخل هنود من البيت ويخرجون. وهى تعطيهم المال لشراء السلاح وتقوم بتنظيمهم. لقد شرحت لى كل شىء الآن: "لدى عدد من المعدين للقيام بالانقلاب، سنقهر الإسبان دون أن يشعروا بنا. المكسيك أولا بعدها بيراكروث وبويبلا وكيريتارو وثاكاتيكاس وبوتوسى.. لن ندفع سنتًا كضرائب للملك ولا عشورًا للكنيسة. سيختفى الإسبان جميعهم من هذه الأراضى وكأن الأرض قد ابتلعتهم. ستبقى أنت فقط وأرملة "أوتشارتى"، صاحبة المطبعة، لأنه يجب أن يكون هناك من يودع أبيات "بيدرو دى أوثيخو" فى كتاب. سأكون أغنى رجل فى الكون، وسوف يعلم من أسودهم أننى أعدت لهم ما لهم، وبأننى طرحت المغتصبين وأرعبت الطفيليين فى الأراضى الجديدة. سنكون خير أمة، تُقتضى بين الأمم..".

لا أصدقه. هذا غير ممكن. فإذا كان "أزيب" قد عاد تجاه الفجر وإلى مملكة الأنباط وإيران والقمم التى تتسلقها أشعة الصباح، وظلت الريح الغربية قريبة من الغرب والسواحل التى تغرب فيها الشمس، وغزت ريح الشمال المرعبة "أسيتيا" والشمال وظلت ريح الجنوب فى الأقاليم المحاذية للأرض، فأى رياح تُنسب لهذه

الأراضى؟ أى ريح تهب هنا؟ يجب أن تنسب هذه الأرض للقارة القديمة، فوحدها لا يمكن الدفاع عنها. فإذا كانت اليونان قد أنجبت آلهة رائعة، لماذا ولدت هنا آلهة على شكل وحوش ترهب وتسرق، برهبانية وحكمة، القلوب؟ بالطبع سوف ينتصر على الإسبان، سيكون جيشه أفضل من جيشهم، ليس لدى أدنى شك، ولكن، هل تصبح المكسيكية لغة هذه الأمة؟

لعل "كلير" تعلم هذا. سأستسلم أنا للموت. لن أستطيع أن أرى كيف ستبدأ معركتها ونشر الإستراتجية التى وضعتها. ليكن ما يكون، فهى لن تموت. وإذا ما أبعدوها إلى ركن ما من أركان إسبانيا الجديدة، فإنها ستعود فى أحلامهم بقدر استمرار بعدها عن المكسيك، هذا الوادى الغريب. فبوجودها به لن يستطيع أحد قتلها. على العكس، هنيئا لى! سيختفى "بيدرو دى أوثيخو" وسيمنحوننى اسمًا آخر لدى عبورى ضفة "الليثى". أغلق عينى. وهنا ينتهى كل شىء.

ملحوظات

١ ـ el mamey مامى: نوع من الثمار أخضر اللون من الخارج وأصفر من الداخل وله بذرتان بحجم وشكل كليتى الخروف.

٢ ـ jitomate خيتوماتى: الطماطم فى بعض دول إسبانوأمريكا.

٣ ـ tamales تماليس: عجينة من الموز أو اللحم وصلصة وخضراوات مطبوخة وملفوفة فى ورق الذرة.

٤ ـ mitote ميتوتى: حفل للهنود الحمر للرقص والشرب.

٥ ـ casabe كسابى: طعام من جذور المنيهوت بأمريكا الجنوبية.

٦ ـ huipil ويبيل: قميص مقور وبلا أكمام تضعه النساء الهنديات الحمر أو المولدات.

٧ ـ pipián بيبيان: أكلة مكسيكية قوامها اللحم والأرز.

٨ ـ el tabanco التبانكو: مظلة مصنوعة من الخيزران.

٩ـ ochavo أوتشابو: عملة نحاسية قديمة.

١٠ ـ Mercedes مرثيديس: اسم قديسة تقوم بفك حبس الأسرى.

المؤلفة فى سطور:

كارمن بويوسا:

شاعرة وروائية وكاتبة مسرح مكسيكية. ولدت فى ٤ سبتمبر ١٩٥٤ بمدينة مكسيكو كان لفقدانها أمها وهى فى الرابعة عشرة من عمرها الأثر الكبير فى حياتها، وقد انعكس فى أغلب رواياتها التى بدأتها بسلسلة أعمال تضم بأشكال متعددة تيمات الطفولة.

درست اللغة والآداب الإسبانية فى جامعة "أوتونوما" بالمكسيك، ثم بعد ممارستها لعدة وظائف والحصول على منح دراسية أصقلتها فنيا منها الخاصة بالمركز المكسيكى للكتاب عام ١٩٨٠، تبدأ فى ممارسة الكتابة وتكون باكورة أعمالها رواية "الاختفاء أفضل" (١٩٨٧). تشارك فى نفس العام في تأسيس عدة ورش عمل فنية مسرحية، وتنظم أنشطة ثقافية متعددة وتحصل على استحسان النقاد عن بعض مؤلفاتها المسرحية التي قدم منها عملان.

عام ١٩٩١ تحصل على منحة مؤسسة غوغنايهم وتنشر ثانى سلسلة أعمال لها وهى روايات تاريخية وباروديا لأجناس أدبية

أخرى بعنوان: "هم بقر ونحن خنازير" و"سماوات الأرض" و"النائمة".
فى عام ١٩٨٥ تحصل على جائزتين للنقاد عن كتابها المسرحى "الديكة" كأفضل عمل فى مجاله لعام ١٩٨٥.

حصلت عام ١٩٨٩ جائزة «خابيير بياوروتيا" لروايتها "من قبل" ونالت روايتها "قديسة المعجزات" المترجمة إلى الألمانية جائزة فرانكفورت عام ١٩٩٦.

كتبت أثناء إقامتها فى نيويورك ثلاثية "يد ليبانت الثانية"، وهو عمل أدبى تقوم فيه بإحياء شخصيات ثريانتيس ومعاركه. ثم "بلاثكيث باريس" (٢٠٠٧) و "القيثارة والعذراء" (٢٠٠٨) ومؤامرة الرومانسيين (٢٠٠٩). هذا إضافة إلى أعمال أخرى قصصية وشعرية وتلفزيونية.

نجد مما سبق أن كارمن بويّوسا تميل إلى المواضيع التاريخية وخاصة المتعلقة بالغزو الإسبانى للمكسيك وما عاناه شعبها من هذا الاستعمار ولكنها تميل أيضا إلى مواضيع عالمية مثل ثرباوتيس أو كليوباترا.

عملت أستاذًا زائر فى جامعات أمريكية، منها: سان دييغو (١٩٩٠)، وجورج تاون (١٩٩٨)، وفرنسية: السوربون بباريس (٢٠٠١).

تقيم حاليا متنقلة بين يوكاتان (المكسيك) ونيويورك مع زوجها المؤرخ مايك ويللاس.

المترجمة فى سطور:

نادية جمال الدين محمد إبراهيم

أستاذ متفرغ بقسم اللغة الإسبانية ـ كلية الألسن ـ جامعة عين شمس.

الوظائف التى تقلدتها:

- عينت منذ تخرجها عام ١٩٧٣ معيدة بقسم اللغة الإسبانية بكلية الألسن جامعة عين شمس.
- حصلت على الدكتوراه عام ١٩٨٧من كلية الفلسفة والآداب ـ جامعة الأوتونوما (مدريد ـ إسبانيا).
- عملت مذيعة ومترجمة ومعدة برامج فى إذاعة إسبانيا الخارجية من ١٩٨٣إلى ١٩٨٧.
- أعيرت لتدريس اللغة الإسبانية والترجمة بالمعهد الدبلوماسى لتدريب زوجات الدبلوماسيين بالخارجية السعودية ـ الرياض من ديسمبر ١٩٩٥حتى أكتوبر٢٠٠١.

- رئيس قسم اللغة الإسبانية بكلية الألسن جامعة عين شمس من ٢٠٠٤ إلى ٢٠١٠.
- عضو بالهيئة الاستشارية للمركز القومى للترجمة.

ترجمات:

- مسرحية بعنوان "ثلاث قبعات كويا" ـ سلسلة المسرح العالمى ـ الكويت العدد ١٤٦ لعام ١٩٨١.
- مسرحية للطفل بعنوان "المؤتمر العام"، مكتبة أوزوريس للنشر، القاهرة ١٩٩٢.
- كتاب "متاهة الوحدة" لأوكتابيو باث، دار سعاد الصباح للنشر، القاهرة ١٩٩٢.
- كتاب "أساليب ومضامين المسرح الإسبانو أ- ريكى المعاصر" لكارلوس ميجيل راديو، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٩.
- كتاب "الغليان" للكاتبة لاورا إسكيبيل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٠.
- خمس حكايات من "حكايات شعبية إسبانو أمريكية"، مجلة "العربى الصغير"، الكويت، من يناير ٢٠٠٥ حتى نوفمبر ٢٠٠٦.
- كتاب "كيف نتعامل مع العمل المسرحى" للكاتب الإسبانى خوسيه لويس جارثيا بارينتوس، أكاديمية الفنون ـ أكتوبر٢٠٠٩.
- إلى الإسبانية لديوان "ذاكرة الفراشات" للشاعر أشرف أبو اليزيد. دار نشر مؤسسة بيت الشعر ـ كوستاريكا مايو ٢٠١٠.

دراسات:

- دراسة بعنوان "لقاء الشرق والغرب بين طه حسين وأوكتابيو باث" مجلة "طراز" ساو باولو - البرازيل سبتمبر٢٠١٠.

الجوائز:

- جائزة الدولة التشجيعية للترجمة عام ١٩٩٤عن كتاب "متاهة الوحدة" للكاتب المكسيكى أوكتابيو باث.
- الجائزة الأولى لمسابقة "الآداب المكسيكية" التى نظمتها السفارة المكسيكية بالقاهرة بالتعاون مع دار نشر .F.C.E العالمية فى نوفمبر عام ١٩٩٤بدراسة بعنوان "الأسطورة بين عبد الوهاب البياتى وأوكتابيو باث".
- فضلا عن العديد من المقالات والدراسات والقصص القصيرة المترجمة التى نشرت فى دوريات ومجلات مثل: قلمو (الإسبانية) فصول، والعربى، وأواصر.
- مراجعة وتقديم لترجمات والإشراف ومناقشة رسائل الماجستير والدكتوراة، وتقييم وتحكيم أبحاث علمية لمختلف الجامعات، وتنظيم لقاءات علمية وثقافية بقسم اللغة الإسبانية بكلية الألسن جامعة عين شمس.

المراجع فى سطور:

د. محمد أبو العطا:

- أستاذ الأدب الإسبانى والترجمة بكلية الألسن جامعة عين شمس.
- له نحو عشرين مجلدًا مترجمًا إلى العربية والإسبانية.
- راجع وقدم لعدد مماثل من الترجمات إلى العربية.
- رأس تحرير الدوريات العلمية والمجلات التالية: صحيفة الألسن (مصر)، مجلة فيلولوجى (مصر)، مجلة المعهد المصرى العالى للسياحة (مصر)، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية (إسبانيا).
- أسس ورأس تحرير مجلة الألسن للترجمة (مصر)، مجلة أزهار (إسبانيا).
- من بين من ترجم لهم: غرسيه لوركا، وخورخى لويس بورخس، وبيوى كسارس، وخوليو كورتاثر، وكاميلو خوسيه ثيلا، وغرسيه ماركت، ورامون خوتا سندير، وخسوس بارود، وإدواردو مندوثا، وأنخل بالوو، وميمبو جاردينللى، وليوبولدو لوجونس، وفرانثيسكو برينيس، وخوسيه ماريا.

التصحيح اللغوى: عادل سميح
الإشـــراف الفنى: حسن كامل

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



تدور أحداث رواية" النائمة" خلال فترة الحكم الإسبانى أو حكم نواب الملك فى إسبانيا الجديدة. وتصف الكاتبة مجتمع إسبانيا الجديدة فى النصف الثانى من القرن السادس عشر، والتعدد العرقى والاجتماعى خلال فترة الاستعمار الإسبانى. وتمثل "النائمة" صيحة تضاف إلى صيحات أخرى أطلقت وما زالت، دفاعا عن ثقافة المغلوب، وضد تجريده من إنسانيته. وتنتهى الكاتبة إلى أن العالم - حـ رؤية البطلة- مزدوج ومنقسم، بين الـ والجديد، الضوء والظلام، الصمت والصو الأبيض والأسود، الماء والأرض، الخير والـ الرجل والمرأة، الأوروبى وبقية الأعراق.

تصميم الغلاف: أحمد بلال